جي دي موباسان

الصعلوك .. وقصص أخرى مختارة

ترجمة

محمد حمودة

الكتاب: الصعلوك .. وقصص أخرى مختارة

الكاتب: جي دي موباسان

ترجمة: محمد حمودة

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

موباسان ، جي دي

الصعلوك .. وقصص أخرى مختارة / جي دي موباسان ، ترجمة: محمد حمودة ،
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٠٩٠ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٣١٢٤ / ٢٠٢٠

الصعلوك .. وقصص أخرى مختارة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

في القطار

ازدحمت عربة القطار بعد وقوفه في محطة كان، وأخذ الركاب يتناقلون الحديث ويتعرف بعضهم إلى بعض. فلما تجاوز القطار مدينة تاراسكون، قال واحد منهم: "هنا يقتل الناس غيلة!" وأخذوا يتحدثون عن ذلك القاتل العجيب الذي لم يستطع أحد أن يقبض عليه، والذي كان يظهر بين حين وحين، فيستبيح حياة أحد المسافرين خلال السنتين الماضيتين. وأخذ كل منهم يفرض فرضًا أو يدلي برأي.. وكانت النساء يتطلعن مرتعدات من وراء زجاج النافذة إلى الليل المعتم البهيم، فهلعت قلوبهن من الخوف وتوقعن أن يظهر فجأة رجل على باب العربة، ثم استطرد القوم إلى ذكر حكايات مفزعة عن مصادفات مشئومة، وانفرادات مع مجانين في قطار سريع، وساعات أنفقت وجها لوجه مع مسافر مريب.

وكان كل واحد منهم يعرف قصة تشرفه، وكلهم كان قد أفزع شريرًا وصرعه وقيده، في ظروف مذهلة، وببديهة حاضرة، وجرأة عجيبة. وأرد طبيب، وكان من عادته أن يقضي فصل الشتاء كل عام في جنوب فرنسا– أراد أن يقص هو أيضًا إحدى مغامراته فقال:

– أما أنا فلم تتح لي قط فرصة لأختبر شجاعتي في أمر من هذه الأمور، ولكني عرفت سيدة، إحدى مريضاتي، وهي ليست الآن على قيد الحياة، حدثت لها أغرب قصة في الوجود، وأكثر غموضًا، وأشدها إثارة للشفقة أيضًا.

كانت روسية، اسمها الكونتيسة ماري بارانوفا. وكانت سيدة من علية القوم، ذات جمال رائع فتان. وأنتم تعرفون مبلغ جمال الروسيات، بأنوفهن الدقيقة، وثغورهن الرقيقة وعيونهن الواسعة ذات اللون الأزرق الرمادي الذي لا يمكن على التحديد معرفته، ورشاقتهن الهادئة القاسية نوعًا ما. ففيهن شيء شرير فتان، شيء متغطرس لطيف، شيء حنون قاس في وقت معا، يفتن الرجل الفرنسي فتنة تامة. ولعل الاختلاف في الأرومة والنوع هو ما يجعلني أرى فيهن كل هذه الأشياء.

وكان طبيبها قد اكتشف منذ سنوات، أنها مهددة بمرض صدري، وكان يحاول أن يحملها على الذهاب إلى جنوب فرنسا، ولكنها كانت ترفض في إصرار أن تغادر بطرسبرج. وأخيرًا في الخريف الماضي، أدرك الطبيب أنها ستقضي ضحية مرضها، فأخطر زوجها بخطورة حالتها، واضطر الرجل امرأته أن ترحل إلى مدينة منتون في الحال.

وركبت القطار وحيدة في عربتها، لأن حاشيتها كانت تشغل مقصورة أخرى في نفس القطار، وجلست أمام النافذة محزونة شيئًا ما، وجعلت تنظر إلى الحقول والقرى، وقد استشعرت الوحشة والوحدة في الحياة، فهي بلا ولد وبلا أهل تقريبًا ومع زوج كان حبه لها قد ولى ، فألقى بها على هذا النحو إلى آخر الدنيا، دون أن يأتي معها، كما يرسل الإنسان خادمه المريض إلى المستشفى.

وكان خادمها إيفان يأتي إليها في كل محطة، ويسأل عما إذا كانت سيدته في حاجة إلى شيء. كان إيفان هذا خادما عجوزا، يخلص إخلاصا أعمى لسيدته، وكان دائما على أهبة الاستعداد ليقضي لها ما تأمر به.

وهبط الليل، وكان القطار منطلقا بأقصى سرعته، ولم تستطع صاحبتنا النوم، فقد كانت أعصابها متوترة للغاية. وخطر لها فجأة أن تعد النقود التي أعطاها لها زوجها في اللحظة الأخيرة، وكانت من العملة الذهبية الفرنسية، ففتحت حقيبتها الصغيرة، وأفرغت على ركبتيها سيل الأصفر الرنان.

لكن لفحة هواء صفعت وجهها فجأة، واندهشت فرفعت رأسها. كان باب المقصورة قد فتح. وتحيرت الكونتيسة، وألقت فجأة شالًا على نقودها المنثورة على ثوبها وانتظرت. ومرت ثوان، ثم ظهر رجل حاسر الرأس، مجروح اليد، لاهث الأنفاس، يلبس ثوب السهرة. أغلق الباب وجلس ورمق جارته بعينين براقتين، ثم لف منديلًا حول رسغه الذي كان الدم منه يسيل.

وأحست السيدة الشابة قواها تخور خوفًا. لقد رآها الرجل بالتأكيد، وهي تعد ذهبها، وقد جاء ليسرقها ويقتلها.وكان لا يزال يحدق في وجهها، متقطع الأنفاس متقلص الوجه، مستعدًا للانقضاض عليها من غير شك. وإذا به يقول فجأة:

– لا تخافي يا سيدتي!

ولم تجب بشيء، فقد كانت عاجزة أن تفتح فمها، وهي تسمع دقات قلبها وطنين أذنيها. فاستطرد يقول:

– لست شريرًا يا سيدتي!

وبقيت في صمتها، غير أنها أتت بحركة مفاجئة، فاهتزت ركبتاها، وأخذ ذهبها يسيل على البساط كالماء.

وجعل الرجل ينظر مبهوتًا إلى هذا الجدول المعدني، وانحنى يلمه فجأة.ونهضت هي فزعة، وألقت على الأرض بكل ثروتها وأسرعت نحو باب المقصورة لتلقي بنفسها على الطريق. لكنه أدرك ما هي صانعة. فانقض عليها وأمسكها بين ذراعيه وأجلسها بالقوة، وقال لها وهو يمسك برسغيها: "أصغى إلي يا سيدتي. أنا لست رجلًا شريرًا، والدليل على ذلك هو أنني سأجمع هذه النقود وسأعيدها إليك. لكنني رجل مضيع الأمل، رجل ميت، إذا لم تساعديني على اجتياز الحدود. ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا. بعد ساعة واحدة، سنبلغ آخر محطة روسية. وبعد ساعة وعشرين دقيقة سنجتاز حدود الإمبراطورية، فإذا لم تنقذيني فأنا رجل ضائع. ومع ذلك يا سيدتي فلم أقتل ولم أسرق ولم أجن شيئًا منافيًا للشرف. أقسم لك على هذا، ولا أستطيع أن أفضي إليك بأكثر من ذلك.

وأخذ يجمع الذهب راكعًا على ركبتيه، من تحت المقاعد، باحثًا عن القطع الأخيرة التي تدحرجت بعيدًا. ثم لما امتلأت الحقيبة الجلدية من جديد، أسلمها لجارته دون أن يزيد كلمة واحدة، وعاد فجلس في ركن العربة القصي.

وكف كلاهما عن الحركة.. وبقيت هي جامدة خرساء، خائرة القوى من فرط الخوف، وإن أخذت تهدأ شيئا فشيئا. أم هو فلم يبد أية إشارة، أية حركة، وبقي مستقيما في جلسته وعيناه تحدقان أمامه، وقد علته شحبة الموت. وكانت هي تلقي عليه، بين لحظة وأخرى، نظرة مفاجئة سرعان ما تتحول عنه. كان شابا في الثلاثين من عمره تقريبا، بهي الطلعة، تبدو عليه إمارات النبل جميعها.

وكان القطار يقتحم الظلمات، مرسلا في الليل البهيم بنداءاته التي تمزق حجب الظلام، وكان يهدئ أحيانًا من سيره، ثم ينطلق بأقصى سرعته. وفجأة هدأ من سرعته، وصفر عدة مرات، ثم وقف عن السير تمامًا. وظهر ايفان على الباب ليتلقى أوامر سيدته.

وتأملت الكونتيسة رفيقها الغريب مرة أخيرة، ثم قالت في نبرة حادة وهي ترتعش:

– إيفان! أرجع إلى الكونت، فلم أعد بحاجة إليك.

وفتح الرجل عينيه الواسعتين من الدهشة، وتمتم يقول:

– ولكن .. يا سيدتي!

فاستطردت تقول:

– كلا.. لن تأتي معي فقد غيرت رأيي. أريدك أن تبقى في روسيا. إليك هذه نقود لعودتك. أعطني قلنسوتك ومعطفك.

وخلع الخادم المذهول قلنسوته وقدم معطفه. فقد تعلم أن يطيع دائمًا دون أن يجيب، وقد ألف رغبات سادته المفاجئة ونزواتهم التي لا تقاوم.

وأبتعد والدموع في مآقيه. وأستأنف القطار سيره جاريًا نحو الحدود. وعندئذ قالت الكونتيسة لجارها:

– هذه الأشياء لك يا سيدي! فأنت إيفان خادمي. ولست أضع إلا شرطًا واحدًا لما أعمله: هو ألا تكلمني قط، ألا تقول لي كلمة لتشكرني، أو لأي سبب آخر. وانحنى الرجل المجهول دون أن ينبس بكلمة.

ولم يلبث القطار أن وقف من جديد، وطلع إلى القطار موظفون يرتدون ثيابًا رسمية. وقدمت لهم الكونتيسة الأوراق وقالت لهم وهي تشير إلى الرجل الجالس في أقصى العربة:

– إنه خادمي إيفان، وهذا جواز سفره.

وأستأنف القطار السير. وبقيا طول الليل وحدهما صامتين. ولما جاء الصباح، وكان القطار قد وقف في محطة ألمانية، نزل الرجل المجهول ثم قال لها وهو يقف عند النافذة:

– اغفري لي يا سيدتي عدم وفائي بوعدي. لقد حرمتك من خادمك، فمن العدل أن آخذ مكانه. ألست في حاجة إلى شيء؟

فأجابت في برود:

– أذهب وأبعث إلي بوصيفتي!

وذهب ثم اختفى.

وكلما كانت تنزل إلى أحد المقاصف، كانت تلمحه عن بعد ينظر إليها... وأخيرًا وصلا إلى مدينة منتون.

وصمت الطبيب لحظة، ثم استطرد يقول:

– وذات يوم بينما كنت أستقبل مرضاي في عيادتي، رأيت فتى مديد القامة يدخل علي ويقول:

– سيدي الطبيب، جئت أسألك عن حالة الكونتيسة ماري بارانوفا.

وهي إن كانت لا تعرفني، فإنني صديق لزوجها. فأجبته:

– لا أمل في شفائها، ولن تعود إلى روسيا.

وفجأة أخذ الرجل ينتحب، ثم نهض وخرج يترنح كرجل ثمل.

وفي المساء، أخبرت الكونتيسة أن رجلًا غريبًا يستفسر عن صحتها، فبدا عليها التأثر، وقصت علي القصة التي أخبرتكم بها، وأضافت:

– هذا الرجل الذي لا أعرفه، يتبعني الآن كظلي. إنني ألقاه في كل مرة أخرج فيها، وهو ينظر إلى بطريقة غريبة، لكنه لم يتحدث إلى قط.

وفكرت لحظة ثم أضافت:

– أسمع.. أراهن على أنه الآن تحت نافذتي.

وتركت مقعدها المستطيل، وراحت تفرج بين الستائر، وأرتني بالفعل الرجل الذي جاء لمقابلتي. كان يجلس على مقعد في الطريق وعيناه مرفوعتان نحو الفندق. ولمحنا، فنهض وابتعد دون أن يلتفت، مرة واحدة، وراءه.

وعندئذ شاهدت شيئًا عجيبًا مؤلمًا: ذلك الحب الصامت بين هذين الفردين اللذين لا يعرف أحدهما الآخر.

وكان هو يحبها في ولاء الحيوان الذي أنقذته، الحيوان المعترف بالجميل، المخلص حتى الموت، وكان يأتي إلي كل يوم ويقول لي: "كيف حالها؟" وقد فهم أنني عرفت خبيئة أمره. وكان يبكي بكاء مرًا، كلما شاهدها تمر من أمامه، وقد ازدادت هزالًا وشحوبًا، وكانت تقول لي:

– لم أتحدث إلى هذا الرجل الغريب إلا مرة واحدة، بيد أنه يبدو لي أنني أعرفه منذ عشرين سنة.

وكانا كلما التقيا، ترد له تحيته بابتسامة جادة فاتنة. وكنت أجدها سعيدة، وهي المرأة المهجورة والواثقة بأن الموت نازل بها لا محالة، كنت أجدها سعيدة إذ تحب، بهذا الاحترام، بهذه المثابرة، بهذه الشاعرية المفرطة، وهذا الولاء المتأهب لكل شيء. ومع ذلك فقد كانت وفية لعنادها وتعاظمها، ترفض رفضًا باتًا أن تستقبله أو أن تعرف اسمه، أو أن تتحدث إليه، وكانت تقول: "لا، لا، إن ذلك سيفسد هذه الصداقة الغريبة: يجب أن يظل كل منا غريبًا عن الآخر!"

أما هو، فكان على شاكلة "دون كيخوته" لأنه لم يفعل شيئًا للتقرب منها. كان يريد أن يظل حتى النهاية، وفيا لوعده الذي قطعه على نفسه في عربة القطار، بألا يتحدث إليها أبدًا.

وكثيرًا ما كانت في ساعات ضعفها الطويلة، تترك مقعدها الطويل، وتذهب فتوارب ستائرها لترى إن كان موجودًا هناك تحت نافذتها، وعندما كانت تراه، جامدًا على مقعده، كانت تعود لترقد والابتسامة على شفتيها.

وذات صباح فارقت الحياة حول العاشرة. وإذ كنت أغادر الفندق، أقبل هو نحوي، وقد قلب الحزن معالم وجهه: كان قد عرف الخبر.

وقال لي:

– هل يمكن أن أراها لحظة، أمامك؟

فأمسكت بذراعه ودخلت إلى البيت.

وعندما وقف أمام جثمانها المسجي، أمسك يدها وطبع عليها قبلة لا نهاية لها، ثم فر كرجل ذهب لبه.

وصمت الطبيب مرة ثانية، ثم استطرد يقول:

– هذه بالتأكيد أغرب ما عرفت من مغامرات السكة الحديدية. ويجب علينا أن نعترف أيضًا بأن الرجال هم من أغرب المجانين.

وغمغمت سيدة تقول في صوت خفيض:

–كان هذان المخلوقان أقل جنونًا مما تظنون.. كانا.. كانا..

ولكنها لم تعد تقوى على الكلام، لفرط بكائها.. وغير الحاضرون مجرى الحديث لتهدأ، فلم يعرف أحد ما كانت تريد أن تقول.

الصعلوك

كان قد عرف أياما أرغد، رغم بؤسه وعاهته.فقد حطمت عربة عظم ساقيه على طريق فارفيل، وهو في الخامسة عشرة من عمره. ومنذ ذلك الحين، أخذ يستجدي، وهو يجر نفسه جرا في الطرقات. وفي أفنية المزارع، يتأرجح على عكازتيه اللتين رفعتا كتفيه إلى مستوى الأذنين، فكانت رأسه تبدو غائرة كأنها بين جبلين.

كان لقيطًا عثر عليه قسيس بلدة بييت في حفرة عشية يوم الموتى[١] وسمي لهذا السبب نيقولا توسان، وتربى على الإحسان، وظل بمنأى عن كل تعليم، ثم أصيب بعاهته الدائمة، وكان كل ما قدم إليه من دواء كوبين من الخمر، قدمهما خباز القرية. ومنذ ذلك العهد أصبح شريدا يجوب الآفاق، لا يعرف شيئا يعمله سوى أن يمد يده بالسؤال.

وكانت البارونة دافاري قد أفسحت له فيما مضى، مكانا ينام فيه، مكانًا أشبه بالجحر، مليئًا بالقش قرب حظيرة الدجاج في المزرعة الملحقة بالقصر. فضمن لنفسه كسرة من خبز وكوبًا من شراب السيدر، حتى في أيام المجاعات الشديدة. وكثيرًا ما حصل على بعض الدريهمات التي كانت تقذف بها السيدة العجوز من أعلى شرفتها، أو من نوافذ حجرتها. أما الآن فلم تعد البارونة على قيد الحياة.

---

(١) يوم ٢ نوفمبر من كل عام حيث تقام الصلوات للترحم على الأموات جميعا، وفي هذا اليوم يزور المسيحيون قبور موتاهم، ويسمونه أيضًا يوم القديسين.. وكلمة توسان تعني جميع القديسين. "المترجم"

ونادرًا ما كان الناس يحسنون إليه، فقد عرفوه وملوا مرآه، منذ أربعين سنة وهم يرونه يتجول على قائمتيه الخشبيتين، ويذهب من كوخ إلى كوخ، بجسمه المشوه، في أسماله البالية. ولكنه لم يهجر المنطقة فهو لا يعرف مكانًا على هذه الأرض غير هذا المكان. هذه الكفور الثلاثة أو الأربعة، التي قضى بها حياته البائسة. وكان قد وضع حدودًا لتسوله، ولم يتجاوزها قط.

وكان يجهل أتمتد الدنيا خلف الأشجار البعيدة، التي تحد نظره أم لا. ولم يكن يسأل نفسه عن هذا.. وسئم الفلاحون مقابلته دوامًا على مشارف حقولهم، أو على جانب مصارفهم، وكانوا كلما صاحوا به: – "لماذا لا تذهب إلى القرى الأخرى، بدلًا من أن تدب على عكازيك هنا على الدوام؟"، لا يرد عليهم بشيء، ويبتعد وقد تملكه خوف مبهم من المجهول، خوف البائس الذي يتهيب، في غموض، ألف شيء.. الوجوه الجديدة، وألفاظ السباب، ونظرات الشك التي يبديها أشخاص لا يعرفونه، ورجال الشرطة الذين يسيرون مثنى مثنى على الطرقات، فيحملونه على الفرار بغريزته مختفيًا وسط الأدغال أو خلف أكوام الحصى.

وعندما كان يلمحهم من بعيد، يبرقون تحت الشمس، كان يستشعر في نفسه، فجأة، خفة فريدة، خفة وحشية، فيختفي عن أنظارهم؛ وكان ينزلق من على عكازيه، ويترك جسمه يسقط كالخرقة البالية، ويلتف حول نفسه كالكرة، فيغدو صغيرًا جدًا، لا يرى، ملتصقًا كأرنب في جحره، يمزج أسماله البالية بالأرض.

ومع ذلك فلم يقع بينه وبينهم حادث ما، ولكن خوفه من الشرطة كان يسري في دمه، كما لو كان قد ورث هذا الخوف وذاك المكر عن أهله الذين لم يعرفهم قط.

لم يكن له مأوى.. لا سقف ولا كوخ ولا عاصم يحميه. كان في الصيف ينام في أي مكان. أما في الشتاء فهو يتسلل إلى مخازن العليف مستعينًا بقبضتيه وحدهما، وهناك يقبع في مكانه أربعة أيام أو خمسة دون أن يتحرك، إذا كان قد جمع من جولته زادًا كافيًا.

وكان يعيش بين الناس عيشة حيوانات الغاب، لا يعرف أحدًا، ولا يحب أحدًا. ولم يكن يثير لدى الفلاحين إلا نوعًا من الاحتقار غير المكترث، أو العداوة المستسلمة. وقد أطلقوا عليه لقب "جرس" لأنه كان يترجح بين وتديه الخشبيين، كما يترجح الناقوس بين حامليه.

وأخيرًا بقي يومين دون أن يتناول طعامًا. فلم يعد أحد يعطيه شيئًا. بل ولم يعد أحد يرغب فيه آخر الأمر. وكانت الفلاحات الواقفات على أبوابهن يصحن به إذا رأينه آتيا من بعيد:

– ألا تريد أن تغرب عنا أيها الجلف، لم تمض ثلاثة أيام مذ أعطيتك كسرة خبز.

فكان يدور على حامليه، ويذهب إلى البيت المجاور حيث يستقبله أهله الاستقبال عينه.

وكانت النساء تعلنه من باب إلى باب:

– لن نستطيع على كل حال، أن نطعم هذا الكسول طيلة العام!

ومع ذلك فقد كان الكسول في حاجة إلى أن يأكل في كل الأيام.

كان قد جوب أنحاء "سانت هيلير" و"فارفيل" و"بييت" دون أن يحصل

على سنتيم واحد أو كسرة خبز قديم جاف. ولم يبق له من أمل إلا في تورنيل، ولكن لابد أن يقطع أربعة كيلومترات على الطريق العام، وكان يحس تعبًا شديدًا بحيث لم يعد يقوى على أن يجر نفسه، ومعدته خاوية مثل جيبه.

ومع ذلك، فقد أخذ يسير.

حدث ذلك في شهر ديسمبر، وكانت الريح المثلجة تهب فوق الحقول، وتصفر بين فروع الأشجار العارية والسحب تجري عبر السماء المنخفضة السوداء، ولا يعرف الإنسان إلى أين تتجه. وكان الأعرج يسير سيرًا بطيئًا، ناقلًا حامليه الواحد تلو الآخر في جهد مضني، معتمدًا على الساق المعوجة الباقية له، والتي تنتهي بقدم عاجزة مغطاة بالخرق البالية.

وكان يجلس بين فترة وأخرى على حافة مصرف ويستريح بضع دقائق. وأشاع الجوع الكآبة في نفسه المضطربة الثقيلة. ولم تكن تخالجه غير فكرة واحدة: أن يأكل. ولكنه لم يكن يعرف بأية وسيلة. وأجهد نفسه على الطريق الطويلة ثلاث ساعات، فلما لمح أشجار القرية، حث خطاه. وأجابه أول من لقي من الفلاحين ومد له يده بالسؤال:

– أهذا أنت مرة أخرى، أيها العميل القديم! ألا نتخلص منك أبدا؟!

وابتعد "جرس" وكان يقابل بالتعنيف من باب لباب، ويطرد دون أن يعطيه أحدًا شيئًا. ومع ذلك فقد راح يتم دورته، صابرًا معاندًا. ولم يجمع فلسًا واحدًا.

وعندئذ أحس الضياع، وشق طريقه خلال الأراضي الغارقة في ماء المصرف، وقد بلغ منه الوهن بحيث لم يعد يقوى على أن يرفع حامليه.

ولكنه طرد من كل مكان. وكان اليوم من تلك الأيام الباردة الكئيبة، التي تنقبض فيها القلوب، وتثور فيها العقول، وتكتئب فيها النفوس، ولا تنفتح فيها يد العون أو للعطاء.

فلما انتهى من زيارة البيوت التي يعرفها جميعها، ذهب وألقى بنفسه في ركن حفرة مجاورة لفناء المعلم "شيكيه". وانحل رباطه كما يقال للتعبير عن كيفية سقوطه بين عكازيه الطويلين، بأن يجعلهما ينسابان تحت ذراعيه. وظل جامدًا لا يتحرك فترة طويلة يعذبه الجوع، وبلغ من تبلد التفكير أنه لم يدرك بؤسه الذي لا قرار له.

وكان ينتظر ولا يعرف ماذا يتوقع من هذا الانتظار المبهم الذي يكمن في الإنسان دائمًا، كان يقبع في ركن هذا الفناء، تحت الريح القارصة، ينتظر العون الخفي الذي يؤمله دائمًا من السماء أو الناس، دون أن يسأل نفسه كيف؟ ولا لماذا؟ ولا ممن يمكن أن يأتي إليه؟ وكانت ثمة جماعة من الدجاجات السوداء تمر به، تبحث عن قوتها في الأرض التي تغذي المخلوقات كلها. وكانت في كل لحظة، تلتقط بضربة من منقارها، حبة أو حشرة لا ترى، ثم تواصل بحثها البطيء الناجح.

وكان "جرس" ينظر إليها دون أن يفكر في شيء، ثم عرض له في بطنه، وليس في رأسه، الإحساس لا الفكرة، بأن واحدة من هذه الطيور ستكون لذيذة الطعم إذا شويت على نار خشب جاف.

ولم يمر بخاطره أبدا أنه سيرتكب جريمة سرقة، فأخذ حجرًا قريبًا.. وقذفه، فقتل أقرب الدجاجات إليه في الحال لأنه كان ماهر اليد. وسقطت

الدجاجة على جنبها وهي تخفق جناحيها، وهربت الأخريات مهتزة على أرجلها الدقيقة. وصعد "جرس" على عكازيه من جديد، وابتدأ يسير ليلتقط قنيصته، في حركات شبيهة بحركات الدجاج.

وبينما هو يقترب من الجسم الأسود الصغير الذي لطخت رأسه بالدم، أحس بدفعة فظيعة في ظهره جعلته يفلت خشبتيه، وألقت به متدحرجا إلى مسافة عشرة أقدام أمامه. وانقض المعلم شيكيه على اللص. كان شديد السخط، فأشبعه لكما، وجعل يضرب بجنون، بقبضتيه وركبتيه في جميع أنحاء جسم الكسيح الذي لم يكن يقوى على الدفاع على نفسه.

وأخذ عمال المزرعة يتوافدون بدورهم، واشتركوا مع سيدهم في ضرب الشحاذ ضربًا مبرحًا. ولما تعبوا من ضربه رفعوه وحملوه وحبسوه في مخزن الحطب، بينما ذهب بعضهم يحضر رجال الشرطة.

وظل "جرس" ممددًا على الأرض، وقد أشرف على الموت، وكان الدم يسيل منه، والجوع يمزق أحشاءه. وأتى المساء ثم الليل، ثم الفجر، ولم يكن قد أكل شيئًا.

وحول منتصف النهار، ظهر رجال الشرطة، وفتحوا الباب في حذر، كانوا يتوقعون مقاومة، لأن المعلم شيكيه ادعى أن الصعلوك هاجمه، وأنه دافع عن نفسه بمجهود شاق.

وصاح رئيس الشرطة: – هيا قف!

ولم يكن "جرس" يستطيع حراكًا. وحاول بالفعل أن يرفع نفسه على حامليه ولكنه لم يوفق. فحسبوا ذلك تظاهرا منه أو حيلة وسوء نية من رجل شرير. وأمسك به الرجلان المسلحان بعنف، وأوقفاه رغما عنه على عكازيه.

وكان الخوف قد تسلط عليه، الخوف الغريزي من أصحاب الأحزمة الصفراء. خوف القنيصة من الصياد، خوف الفأر من القط. واستطاع بمجهودات تتجاوز طاقة البشر أن يقف، وقال رئيس الشرطة:

– "سر!"

فسار. وشاهده رجال المزرعة جميعا وهو سائر وكانت النساء تلوحن له بقبضات أيديهن. والرجال يضحكون ويقذفونه بالسباب: لقد قبض عليه آخر الأمر. والحمد لله على الخلاص منه!

وابتعد بين حارسيه. واستجمع ما يلزمه من جهد بائس ليجر نفسه حتى المساء، مذهولًا لا يعرف ماذا يصنع به، واشتد به الفزع بحيث لم يعد يفهم شيئًا.

وكان الناس، الذين يقابلونهم، يقفون عن السير ليشاهدوه وهو يمر من أمامهم، وكان الفلاحون يهمسون: –هذا هو اللص!

وبلغوا قرب الليل أكبر بلاد الإقليم. ولم يكن قد ذهب قط إلى هذا المكان. ولم يكن يتصور حقا ما يدور حوله، ولا ما يمكن أن يحدث بعد ذلك. فهذه الأشياء الفظيعة، المفاجئة، وهذه الوجوه، وهذه المنازل الجديدة، كانت كلها تبعث الرعب في نفسه.

ولم ينبس بكلمة واحدة، فلم يكن لديه ما يقوله، إذ لم يعد يفقه شيئًا. وفضلا عن ذلك، لم يكن قد حادث أحدًا منذ سنين عديدة، ففقد القدرة على استخدام لسانه تقريبًا، وكانت أفكاره بالغة التشويش كذلك، بحيث لم يكن يستطيع أن يصوغها كلامًا.

وحبس في سجن البلدة، ولم يفكر رجال الشرطة في أنه قد يكون في حاجة إلى طعام. وتركوه حتى اليوم التالي.

ولكنهم، عندما ذهبوا لسؤاله في الصباح الباكر، وجدوه ميتًا على الأرض، فيا لها من مفاجأة!

بييرو

كانت مدام لوفيفر واحدة من سيدات الريف، مات زوجها وترملت بعده، وهي من تلك الطائفة من أنصاف الفلاحات، اللائي يلبسن الشرائط الكثيرة، ويضعن على رءوسهن قبعات ذوات حافات عديدة الثنيات. وكانت من السيدات اللائي يتحذلقن في الكلام فتجيء عباراتهن مليئة بالأخطاء اللغوية المضحكة، وتراهن يلبسن أمام الناس لباس العظمة بينما يخفين روحا شريرة دعية، خلف مظاهر خارجية مضحكة براقة، كما يخفين أياديهن الغليظة المحمرة تحت قفازات من الحرير.

وكانت تقوم على خدمتها فتاة ريفية طيبة ساذجة تدعى روز. تعيش معها في بيتها الصغير ذي النوافذ الخضراء، ذلك البيت الذي يقع على إحدى الطرقات في نورمانديا، وسط بلاد "كو".

وكان أمام المنزل حديقة ضيقة، تزرع السيدة وخادمتها بعض الخضر فيها.

وذات ليلة سرق منها بعض البصل.

وما كادت روز تلاحظ السرقة حتى أسرعت بإخطار سيدتها، فنزلت بمئزرها الصوفي، وكان ذلك بالقياس إليها جريمة كبرى وكارثة فادحة، لقد سرقت مدام لوفيفر.. سرقت! إذن فقد عمت السرقات البلدة، وربما عاد اللصوص مرة أخرى!

وكانت المرأتان تتأملان آثار الخطى في ذعر شديد، وتثرثران وتفرضان

فروضًا كثيرة: لقد مروا من هنا، ووضعوا أقدامهم على الحائط، لقد قفزوا في الزرع!..

وأصبحتا تخافان مما سيحدث في المستقبل. وأنى لهما النوم الهادئ الآن!

وانتشر خبر السرقة. وأقبل الجيران، وحققوا وناقشوا بدورهم. وأخذت المرأتان تشرحان لكل وافد جديد ما عن لهما من ملاحظات وآراء. ونصحهما مزارع من الجيران هذه النصيحة: "عليكما باقتناء كلب!".

هذا صحيح. يجب أن يكون لديهما كلب. حتى إذا لم يكن ذا غناء، فقد يفيد بالإنذار بالخطر. ليس كلبًا كبيرًا بحق الله! فماذا تصنعان بكلب كبير! سيكون خرابهما في إطعامه. ولكن.. كلب صغير يستطيع أن ينبح.

وما إن انصرف الناس حتى راحت مدام لوفيفر تناقش طويلًا فكرة اقتناء كلب. وبعد تفكير وترو، أخذت تقيم ألف اعتراض على هذا الرأي، فقد أفزعتها صورة القصعة المليئة باللفت، فهي من ذلك الجيل من الريفيات الحريصات على مالهن، واللائي يحملن دائما في جيوبهن سنتيمات (مليمات) قليلة، يحسن بها إلى الفقراء علانية أمام الناس في الطريق، أو في يوم الأحد.

وكانت روز تحب الحيوانات، فعرضت حججها ودافعت عنها في دهاء. وعلى ذلك فقد استقر عزمها على أن يكون لهما كلب.. صغير جدًا.

وشرعتا في البحث، غير أنهما لم تجدا إلا كلابًا كبيرة من التي تبتلع الطعام بشكل يبعث القشعريرة في الجسم. وكان لدى البقال كلب صغير جدًا ولكنه كان يطلب فرنكين ثمنا له، ليغطي مصاريف تربيته إياه. وأعلنت مدام لوفيفر أنها مستعدة أن تتكفل بإطعام كلب ولكنها لن تدفع شيئا في شراء الكلب.

غير أن الخباز الذي كان عليما بالظروف، أحضر لها في عربته ذات صباح، حيوانًا صغيرًا غريبًا أصفر اللون، يكاد يكون بلا أرجل، له جسم تمساح ورأس ثعلب وذيل كالنفير. كان هذا المخلوق خليطًا غريبًا، وقد أراد أحد عملاء الخباز أن يتخلص منه فأعطاه له. وبدا هذا الكلب كريه المنظر، الذي لن يكلف شيئًا، جميلا في عيني مدام لوفيفر، وقبلته روز، وسألت عن اسمه. فأجاب الخباز: "بيرو".

ووضع في صندوق من صناديق الصابون القديمة. وقدم له أول الأمر ماء ليشرب فشرب، وقدمت له بعد ذلك قطعة خبز فأكل. وقلقت مدام لوفيفر وقالت لنفسها: "عندما يعتاد على المنزل، سنطلق سراحه، وسيجد ما يطعم وهو يجول في البلدة".

وأطلق سراحه بالفعل، ولم يمنعه هذا من أن يكون دائما شديد الجوع، ولم يكن فضلا عن ذلك ينبح إلا ليطالب بجرايته. وكان نباحه شديدًا في هذه الحالة.

وكان كل الناس يستطيعون دخول الحديقة فيقترب ببيرو من كل وافد يداعبه، ويظل صامتا تمام الصمت.

ومع ذلك فقد أنست مدام لوفيفر إلى هذا الحيوان، وبلغ بها الأمر أن أحبته، بل وكانت تطعمه بيديها من حين إلى حين، لقمة خبز مغمسة بمرق طبيخها. ولكنها لم تكن فكرت في الضريبة قط. وعندما طالبوها بثمانية فرنكات.. ثمانية فرنكات لهذا الكليب الذي لا ينبح، كاد يغشى عليها من شدة التأثر والمفاجأة.

واستقر العزم في الحال على التخلص من ببيرو. ولم يرد أحد أن

يأخذه، ورفض قبوله، السكان جميعا، على مدى عشرة فراسخ من المكان، فتقرر أن يلقى به في منجم جيري.

وكان الناس الذين يرغبون في التخلص من كلابهم يلقون بها في مناجم الجير، يلمح الإنسان وسط سهل فسيح، شيئا أشبه بالكوخ أو بسقيفة من القش. إنها مدخل بئر الجير. وهو جب كبير مستقيم يتعمق عشرين مترا في جوف الأرض، وينتهي إلى سلسلة من الدهاليز.

وكان الناس يهبطون إليها مرة في كل عام في الوقت الذي اعتادوا أن يسمدوا أراضيهم فيه. وهذه المناجم تستعمل بقية أيام السنة، مدافن للكلاب المحكوم عليها بالموت. وعندما يمر امرؤ قرب فوهة الجب، كثيرا ما يصك أذنيه عواء شاك، ونباح فظيع أو يائس، ونداءات تبعث على الرثاء.

وترى كلاب الصيادين والرعاة، تهرب مذعورة بعيدا عن حفرة التنهدات هذه. وعندما ينحني فوقها الإنسان، يشم منها رائحة نتن فظيعة. وثمة مآس رهيبة تقع فيها في الظلام.

وما إن يأخذ كلب في الاحتضار بعد عشرة أيام أو أثنى عشر، يعيش فيها على البقايا المتخلفة من سابقيه، حتى يلقى عليه فجأة، كلب جديد، أقوى منه وأضخم بالتأكيد. ويبقيان هناك كلاهما وحيدين جائعين، تبرق أعينهما، ويترصد أحدهما الآخر، ويتعقب كل منهما رفيقه ويصيبهما التردد والقلق. لكن الجوع يدفع بهما، فيهاجم كل منهما رفيقه، ويتصارعان طويلًا صراعًا مريرًا. ويأكل الأقوى منهما الأضعف ويلتهمه حيا.

ولما استقر الأمر على إلقاء بيبرو في الجب، بحثنا على شخص ينفذ ما

اتفقتا عليه. وطلب العامل الذي يصلح الطريق، نصف فرنك نظير رحلته إلى الجب. ورأت مدام لوفيفر في ذلك مبالغة جنونية. ورضي خادم الجيران بربع فرنك. وكان ذلك كثيرا جدا أيضا. ورأت روز أنه يحسن بهما أن تحملاه بنفسيهما، حتى لا يعذب في الطريق، ويستشعر دنو أجله، فتقرر أن تذهب به كلتاهما في الليل.

وقدما له في ذلك المساء حساء طيبا مع قطعة من الزبد فالتهمه إلى آخر قطرة منه. وحملته روز في سلتهاا وهو يهز ذيله قرير العين.

وأخذتا تسيران في خطى سريعة خلال السهل كقاطعي طريق. وسرعان ما لمحتا منجم الجير ثم بلغتاه. وانحنت مدام لوفيفر على الجب وأنصتت لتعرف إن كان ثمة كلب يعوي. لم يكن هناك أي كلب. وسيكون بييرو وحيدًا. عندئذ قبلته روز وهي تنتحب وألقت به في الحفرة. وانحنتا كلتاهما، وقد أرهفتا السمع.

وسمعتا أول الأمر صوتًا مكظومًا، ثم شكاة حادة تمزق نياط القلب تنبعث من حيوان مكلوم. ثم تتابعت صرخات قصيرة كلها آلام، ثم نداءات يائسة وتوسلات كلب كان يتضرع وقد رفع رأسه تجاه فتحة الجب.

كان ينبح.. وينبح!

واعتراهما ندم وفزع وخوف مجنون لا يمكن تفسيره. ولما كانت روز قد أسرعت في السير، فقد صاحت بها مدام لوفيفر: "انتظريني يا روز! انتظريني!"

وأثقلت عليها في ليلتها تلك كوابيس رهيبة! فقد رأت مدام لوفيفر فيما يرى النائم، كأنها تجلس إلى المائدة لتطعم حساءها، ولكنها لما كشفت

صحفة الحساء، رأت بداخلها.. بييرو. فاندفع خارجها، وقضم أنفها.

واستيقظت، وخيل لها أنها ما زالت تسمع نباحه. وأنصتت، لقد كانت مخطئة.

ونامت من جديد، فرأت نفسها على طريق عام.. طريق لا نهاية له. كانت تسير فيه. وعلى حين فجأة لمحت في منتصف الطريق، سلة.. سلة كبيرة من سلال المزارعين مهجورة، كانت هذه السلة تخيفها.

ومع ذلك فقد انتهى بها الأمر إلى فتحها، وكان بييرو قابعا فيها، فقبض على يدها، ولم يتركها بعد ذلك. وفرت مذعورة حاملة الكلب معلقا في طرف ذراعها على هذا النحو، وقد ضم عليه فاه.

ونهضت في الصباح الباكر مجنونة أو تكاد، وجرت إلى الجب كان ينبح.. لا يزال ينبح.. لقد نبح طول الليل. وأخذت تبكي وتناديه وتدلله بألف اسم. وأجاب بكل النغمات المؤثرة من صوته الكلبي. وعندئذ أرادت أن تراه مرة ثانية، وهي تعد نفسها بأن تهيئ له السعادة حتى تموت.

وأسرعت إلى حفار الآبار المكلف باستخراج الجير، وقصت عليه قصتها. واستمع الرجل دون أن يقول شيئا. فلما انتهت، قال الرجل: "تريدين كلبك؟ هات أربعة فرنكات!"

فانتفضت، وتبددت كل آلامها من هول الصدمة.

"أربعة فرنكات! ماذا ستفعل لتستحق ذلك؟"

فأجاب: هل تعتقدين أنني سأحضر حبالي، وجهاز السحب، ثم أنصب الجهاز وأذهب مع صبي إلى هناك.. وأترك كلبك اللعين يعضني، لكي أتمتع

بإعادته إليك. كان يجب عليك ألا تلقى به في الجب!".

وانصرفت محنقة.. "أربعة فرنكات!"

وما كادت تعدو إلى بيتها حتى دعت إليها روز وأخبرتها بمطالب الحفار. وأخذت روز المستسلمة دائما تردد: "أربعة فرنكات، إنها مبلغ كبير يا سيدتي".

ثم أضافت: "لو أننا قذفنا بالطعام لهذا الكلب المسكين، حتى لا يموت على هذا النحو!".

فوافقت مدام لوفيفر في فرح شديد، وذهبت كلتاهما ومعهما قطعة من الخبز المغطى بالزبد.

فقسمتاها لقما، وأخذتا تقذفان بها الواحدة تلو الأخرى، وهما تتحدثان كل بدورها إلى بيبرو. وما كان الكلب ينتهي من لقمة منها حتى يطالب بالتالية. وعادتا في المساء، ثم في اليوم التالي.. وكل يوم.. مرة واحدة!

وذات صباح في اللحظة التي أسقطت فيها اللقمة الأولى، سمعا فجأة في البئر، نباحًا قويًا. كان هناك كلبان! لقد ألقى بكلب ثان.. كلب كبير!

وصاحت روز: "بيبرو!" ونبح بيبرو ونبح. وعندئذ أخذتا في إسقاط الطعام، ولكنهما كانتا تميزان في كل مرة دفعة قوية ثم صيحات بيبرو الشاكية، وقد عضه رفيقه الذي كان يأكل كل شيء، لأنه أقوى منه.

وعلى الرغم من أنهما كانتا تصيحان: "إنها لك يا بيبرو!" فمن الجلي أن بيبرو لم يحصل على شيء.

وارتج على المرأتين، وظلت كل منهما تنظر إلى الأخرى؛ وقالت مدام

لوفيفر في لهجة مغيظة: "لا أستطيع أن أطعم جميع الكلاب التي يلقى بها هنا. يجب أن نعدل عن هذا الأمر!"

وانصرفت وقد أصابتها غصة، لما خطر لها من أن هذه الكلاب كلها تعيش على حسابها. وحملت معها ما تبقى من خبز، وأخذت تأكله أثناء سيرها.

ومشت روز في أثرها، وهي تمسح عينيها بطرف ميدعتها الزرقاء.

العقد

كانت واحدة من تلكم الصبايا الفاتنات اللواتي ولدن في أسرة من أسر صغار الموظفين، فكأن الأقدار قد أخطأت معهن. لم تكن تملك مالًا ولا آمالًا، ولا وسيلة تتيح لرجل ثري مرموق أن يعرفها، ويحبها ويتزوج منها. فاستسلمت وتركت أهليها يزوجونها من كاتب صغير في وزارة المعارف العمومية.

كانت تبدو بسيطة في ملبسها فهي لا تستطيع أن تتزين وتتجمل؛ غير أنها كانت تعسة تعاسة من أنزل من علياء طبقته، ذلك لأنه ليس للنساء طبقة ولا أرومة. فجمالهن ورشاقتهن وفتنتهن تقوم مقام الحسب والنسب. وأن الرقة الأصيلة وغريزة التأنق فيهن، وحسن تصرفهن، هي وحدها التي تحدد طبقتهن في المجتمع، فترفع بنات الشعب أحيانًا إلى مصاف الأميرات.

وكانت دائمة الشقاء، تؤمن بأنها ولدت لكل ترف وعيش رغيد. فهي شقية بمسكنها الوضيع، وبجدرانه العارية البائسة، ومقاعده البالية ومتاعه الكئيب. كانت تؤرق مضجعها وتعذبها كل تلك الأشياء التي لا تنتبه إليها فتاة أخرى من طبقتها. وكان منظر الخادمة الريفية التي تقوم على شئون شقتها المتواضعة، يوقظ في نفسها حسرات حزينة، وأحلامًا مؤلمة. كانت تحلم بتلك القصور ذات المداخل الأنيقة، تجللها ستر شرقية، وتضيئها مشاعل عالية من البرنز. وتفكر في الخادمين الطويلين، وقد أثقلت جفونهما الحرارة الشديدة المنبعثة من المدفأة، فناما في مقعدين وثيرين. وتفكر في حجرات الاستقبال الفسيحة المغطاة بالحرير الثمين، وفي قطع الأثاث الفاخرة وما

عليها من تحف ثمينة. وفي الصالونات الصغيرة الأنيقة المعطرة المعدة لأحاديث المساء في صحبة الأصدقاء المقربين، والرجال المشهورين الذين يسعى الجميع إلى التعرف بهم، وتصبو النساء إلى اجتذاب انتباههم.

وكلما جلست للعشاء أمام المائدة، التي بسط عليها غطاء لم يغير منذ ثلاثة أيام وفي مواجهة زوجها الذي ينظر إلى صحيفة الحساء في سعادة ويقول: "آه! يا للحساء الطيب! لست أعرف شيئا ألذ منه مذاقًا!.." كانت تفكر في الولائم الفاخرة وفي أدوات المائدة الفضية اللامعة، وفي الستائر التي تغطي الجدران جميعا، وقد نقشت عليها شخصيات قديمة وطيور غريبة، كأنها من عالم الأحلام، وتفكر في صنوف الطعام المشهية، وقد قدمت في صحاف ثمينة. وتحلم بعبارات رقيقة يهمس بها في الآذان ويرد عليها بسمة كبسمة أبي الهول وهي تأكل لحم السمك المورد وأجنحة الدراج.

لم يكن لديها ثياب جميلة ولا حلي غالية، وهي لا تهوى سوى ذاك وتحس بأنها خلقت لهذا. فلشد ما كانت تتوق أن تكون موضع الإعجاب بل والحسد، ولشد ما تمنت أن تكون ساحة فاتنة تصبو إليها القلوب.

وكانت لها صديقة ثرية من رفيقات الدير "المدرسة" لم تكن تحب أن تسعى للقائها لأنها كانت تعاني أشد الآلام وهي عائدة إلى دارها. وكانت تبكي أياما بطولها، تبكي حزنًا ويأسًا وحسرة.

وعاد زوجها ذات ليلة، متهلل الأسارير وهو يحمل في يده مظروفًا كبيرًا وقال:

– خذي.. هاك شيئًا لك!

ففضت المظروف بسرعة وأخرجت منه بطاقة مطبوعة تحمل هذه

الكلمات "يتشرف جورج رامبونو وزير المعارف العمومية وحرمه بدعوة السيد لوازيل وحرمه لقضاء السهرة بمقر الوزارة، يوم الاثنين الموافق ١٨ فبراير".

ولكنها بدل أن تطير فرحًا بهذه الدعوة، كما كان يرجو زوجها، ألقت بها على المائدة محنقة، وهي تغمغم قائلة:

– وماذا تريدني أن أصنع بها؟

– ولكن يا عزيزي، كنت أظنك ستسعدين بها. أنت لا تخرجين قط، وهذه فرصة، فرصة طيبة! لقد عانيت كثيرًا للحصول عليها فالكل يهفو إليها، ولكنهم لا يعطون الموظفين منها إلا بقدر.. سوف تشاهدين هناك المجتمع الرسمي.

ونظرت إليه نظرة الغضب وقالت وقد نفد صبرها:

– وماذا تريدني أن أرتدي لمثل هذه السهرة؟.

ولم يكن قد فكر في ذلك: فتمتم يقول:

– الثوب الذي تذهبين به إلى المسرح، إني أراه مناسبًا للغاية!

وصمت مبهوتًا حائرًا، عندما رأى زوجته تبكي. وكانت ثمة دمعتان كبيرتان تنحدران في بطء من زاويتي عينيها إلى زاويتي فمها فتلعثم:– ما بك! ما بك؟

لكنها سيطرت على ألمها في جهد عنيف، وأجابت وهي تمسح خديها المبللين بالدموع:

– لا شيء، ليست لدى ملابس للسهرة، ولا يمكنني أن أذهب إلى هذا

الحفل. أعط هذه الدعوة زميلًا من زملائك تكون زوجته خيرًا مني ملبسًا.

فابتأس الزوج ثم استطرد يقول:

– اسمعي يا ماتيلدا، كم يكلفنا ثوب سهرة مناسب، بحيث ينفعك في ظروف أخرى. ثوب بسيط للغاية؟

وفكرت بضع لحظات، تحسب حسبتها وتفكر أيضًا في المبلغ الذي يمكن أن تطلبه دون أن يكون نصيبها الدهشة والرفض من هذا الموظف الحريص على ماله.

وأخيرًا قالت في تردد:

– لا أعرف على وجه الدقة، ولكن يبدو لي إنني قد أوفق.. بأربعمائة فرنك.

وامتقع وجهه قليلًا.. إذ كان قد ادخر هذا المبلغ بتمامه ليشتري بندقية ويذهب للصيد في الصيف المقبل، في سهل نانتير مع فريق من أصدقائه اعتادوا صيد الطيور هناك أيام الآحاد.

ومع ذلك قال لها:

– ليكن! سأعطيك أربعمائة فرنك، فاجتهدي أن تحصلي بها على ثوب جميل!

وأخذ موعد الحفلة الراقصة في الاقتراب، وكانت مدام لوازيل تبدو مبتئسة قلقة مهمومة، مع أن ثوبها كان معدًا. وقال لها زوجها ذات مساء:

– ما بك؟ إن تصرفاتك غريبة منذ ثلاثة أيام.

وأجابت:

– لشد ما يضايقني ألا يكون لدى قطعة واحدة من الحلي، حجر كريم، شيء أتزين به، سيدل مظهري على الفاقة، وأرى من الخير ألا أذهب إلى هذه الحفلة.

فاستطرد يقول:

– ضعي زهورًا طبيعية، أن مظهرها أنيق جدًا في هذا الفصل. ويمكنك بعشرة فرنكات أن تشتري وردتين رائعتين أو ثلاثًا.

ولكنها لم تقتنع وقالت:

– كلا. فليس ثمة شيء أكثر إذلالًا للنفس من أن تبدو المرأة بمظهر فقير بين سيدات ثريات.

غير أن زوجها صاح بها:

– ما أغباك! اذهبي وقابلي صديقتك مدام فورستييه واطلبي منها أن تعيرك بعض الحلي، فإنك وثيقة الصلة بها بحيث يمكنك أن تطلبي إليها ذلك.

فصاحت صيحة الفرح وقالت:

– هذا صحيح، لم أكن فكرت في هذا.

وذهبت في اليوم التالي إلى صديقتها وروت لها ما هي فيه من ضيق.

واتجهت مدام فورستييه إلى صوانها ذي المرآة، وتناولت صندوقًا كبيرًا وأحضرته وفتحته، وقالت لمدام لوازيل:

– اختاري منها ما تريدين يا عزيزي.

ورأت أول ما رأت سوارًا، ثم عقدًا من اللؤلؤ ثم صليبًا بندقيًا من

الذهب والجواهر الكريمة، بارع الصنع. وأخذت تجرب الحلي على نفسها أمام المرآة، مترددة حائرة، لا تدري ماذا تختار، ولا تكف عن السؤال:

– أليس لديك حلي أخرى؟

– بلى.. ابحثي فأنا لا أعرف ما يمكن أن يعجبك منها.

وعلى حين بغتة وجدت في علبة من الساتان الأسود عقدًا بديعًا من الماس فأخذ قلبها يدق في لهفة جامحة. وارتعشت يداها وهي تمسك به، وتثبته حول جيدها، وظلت منبهرة وهي ترى نفسها في المرآة.

ثم سألت مترددة وجلة:

– هل تستطيعين أن تعيريني هذا العقد.. لا شيء غير هذا العقد؟

– بالطبع.. من غير شك.

وقفزت إلى عنق صديقتها وقبلتها بحرارة ثم ولت مسرعة بكنزها.

وأقبلت ليلة الحفلة الراقصة. وأصابت مدام لوازيل نجاحًا كبيرًا، كانت أجمل النساء، كانت أنيقة، رشيقة، باسمة، نشوى من الفرح وتطلع الرجال إليها، وأخذوا يسألون عن اسمها، ويسعون إلى أن يقدموا إليها. وكان الملحقون بمكتب الوزير جميعا يريدون أن يرقصوا معها رقصة الفالس.. واسترعت انتباه الوزير.

كانت ترقص في حماس وحرارة وقد أثملها السرور، لم تعد تفكر في شيء، سوى جمالها المنتصر ومجدها المتألق، وهي في غمرة من سعادة صيغت من كل هذا التكريم والتقدير ومن هذه الرغبات المستيقظة، ومن هذا النصر الكامل الذي تستعذبه قلوب الغواني.

وانصرفت زهاء الرابعة من الصباح، وكان زوجها منذ منتصف الليل، يغط في نومه، في بهو خلا من الناس، هو وثلاثة رجال آخرين كانت نساؤهم يغترفن من اللهو ما شئن.

وألقى على كتفيها الدثار الذي أحضره لساعة الخروج، وهو دثار مبتذل، دثار كل يوم، يتنافر بحقارته مع أناقة ثوبها. أحست هي بذلك وأرادت أن تتسلل حتى لا تلمحها النساء الأخريات اللاتي كن يتدثرن بثمين الفراء.

وراح زوجها يعتاقها ويقول:

– تريثي، فقد يصيبك البرد في الخارج.. سأنادي على عربة.

لكنها تصامت عنه وأخذت تهبط الدرج على عجل. فلما صارا في الطريق، لم يجدا مركبة فمشيا وراحا يبحثان عن واحدة، وهما يصيحان كلما أبصرا على البعد حوذيا فلا يقف.

واتجها ناحية السين، وقد يئسا من العثور على مركبة، وكانا يسيران مرتجفين من البرد. وعند رصيف السين، وجدا بعد لأي مركبة عتيقة ذات مقعدين من تلك المراكب التي لا يراها الإنسان في باريس إلا تحت جنح الليل. كأنما تخجل أن يظهر بؤسها في وضح النهار.

وأوصلتهما حتى باب بيتهما في شارع الشهداء. وصعدا إلى شقتهما في اكتئاب. فقد انتهي الأمر بالنسبة إليها، أما هو فلأنه يتذكر أن من واجبه أن يكون في الوزارة الساعة العاشرة من صباح الغد.

ونضت عن كتفيها الدثار، ووقفت أمام المرآة لتشاهد نفسها في روعة

بهائها مرة أخيرة. غير أنها أرسلت بغتة صيحة منكرة. لم يكن العقد الماسي حول جيدها.

فسألها زوجها وهو بعد في نصف ثيابه:

– ماذا أصابك؟

فالتفتت إليه هالعة وقالت:

– لقد.. لقد.. لقد فقدت عقد مدام فورستييه!

فانتصب واقفا وقد بلغ منه الرعب كل مبلغ وقال:

– ماذا؟... كيف؟ لا يمكن!

وبحثا في ثنايا الثوب وفي طيات المعطف، في الجيوب وفي كل مكان. ولكنهما لم يعثرا على شيء.

وسألها:

– أواثقة أنت أنه كان حول جيدك عند مغادرة الحفل.

– نعم، فقد لمسته بيدي في ردهة الوزارة.

– ولو إنه وقع في الطريق لسمعنا صوت سقوطه. فلابد أنه وقع في المركبة.

– نعم. هذا جائز. هل أخذت رقمها؟

– كلا، وأنت ألم تنظري إليه؟

– كلا

وأخذا يتبادلان النظرات وقد نال منهما اليأس، وأخيرًا ارتدى لوازيل ثيابه وقال:

– سأعود إلى الطريق التي قطعناها راجلين فلعلي أعثر عليه فيها.

وخرج. وظلت هي بلباس السهرة لا تقوي على الرقاد، متهالكة على مقعد، بقيت في قر البرد بلا نار تدفئها وقد تلاشت الأفكار من رأسها تمامًا.

وعاد زوجها إلى البيت في السابعة صباحًا ولم يكن قد وجد شيئًا.

لقد ذهب إلى رئاسة الشرطة، ودور الصحف، معلنا عن مكافأة لمن يجد العقد، وإلى شركات المركبات، وإلى كل موضع يهديه إليه بصيص من أمل.

وظلت هي طيلة النهار قعيدة الدار، على حالتها من الذهول، أمام هذه المصيبة الفادحة.

وعاد لوازيل في المساء ساهم الوجه، شاحب اللون، لأنه لم يكن قد اكتشف شيئًا. وقال لها:

– يجب أن تكتبي لصديقتك تخبريها بأن مشبك العقد قد انكسر، وإنك أعطيته إلى من يصلحه، وسيتيح لنا ذلك فسحة من وقت لنتدبر الأمر.

وكتبت ما أملاه عليها.

وبعد أسبوع، كانا قد فقدا كل أمل في العثور على العقد.

وأعلن لوازيل، وقد بدا كأنه قد مرت عليه خمس سنوات:

– يجب أن نتدبر الأمر ونأتي بعقد آخر بدل العقد.

وأخذا في اليوم التالي علبة العقد، وذهبا إلى الصائغ المنقوش اسمه بداخلها، فراجع دفاتره وقال:

– لست أنا يا سيدتي الذي باع هذا العقد. ربما كنت قد بعت العلبة فقط.

وحينئذ ذهبا من صائغ إلى صائغ يبحثان عن عقد آخر يماثل العقد المفقود. وقد انتابتهما العلة من الهم والغم.

وعثرا في حانوت في حي بور رويال على عقد من الماس يشبه العقد الضائع، وكان ثمنه أربعين ألف فرنك، ورضي البائع أن يبيعه بستة وثلاثين ألفا.

وسألا تاجر المجوهرات ألا يبعه قبل ثلاثة أيام. واتفقا معه أن يرجعوه إليه نظير أربعة وثلاثين ألفا من الفرنكات، إذا وجدا العقد الآخر قبل نهاية فبراير.

وكان لوازيل يملك ثمانية عشر ألف فرنك خلفها له أبوه. وقرر أن يقترض الباقي.وأخذ في الاقتراض.. طلب ألف فرنك من هذا، وخمسمائة من ذاك، ومائة من هنا، وستين من هناك، ووقع صكوكا، وارتبط بوعود فيها الخراب، ولجأ إلى المرابين والمقرضين جميعا، وخاطر بسمعته طول العمر، دون أن يعرف أن كان سيستطيع أن يفي بعهوده، وذهب ليشتري العقد، وقد أفزعته الهموم، وأضناه البؤس الذي كان موشكا أن ينطبق عليه. وأمضه ما كان يتوقعه من ألوان الحرمان، وضروب العذاب ودفع للتاجر ستة وثلاثين ألف فرنك.

ولما أعادت مدام لوازيل العقد إلى صديقتها مدام فورستييه، قالت لها هذه الأخيرة في لهجة حانقة:

- كان يجب أن تعيديه إلى من قبل، فربما كنت في حاجة إليه.

ولم تفتح العلبة فكفت بذلك ما كانت تخشاه مدام لوازيل.

ترى ما الذي كانت ستقوله، لو إنها لاحظت إبدال العقد؟ وماذا سيكون رأيها؟ هل ستعدها من اللصوص؟

وعرفت مدام لوازيل عيشة المعوزين الشقية، وتقبلت مصيرها ببطولة، وكان لابد من تسديد هذا الدين الفادح. فاستغنيا عن الخادمة، واستبدلا المنزل، واستأجرا شقة صغيرة في أعلى إحدى الدور.

وقامت بشئون البيت الشاقة، وأعمال المطبخ المقيتة، فكانت تغسل الأواني، مما أبلى أناملها الوردية على أواني الفخار القذرة وقيعان القدور، وغسلت بالصابون متسخ الثياب والقمصان والخرق التي كانت تنشرها بنفسها لتجف. وأنزلت القمامة إلى الطريق، وصعدت حاملة الماء وهي تقف عند كل طابق لتسترجع أنفاسها المبهورة، وكانت ترتدي ثياب السوقة واختلفت إلى الفاكهاني والبدال والقصاب تحمل السلة في ذراعها، وتساوم وتقاوم مدافعة عن كل مليم من نقودها القليلة.

وكان يجب تسديد صك من صكوك الدين في كل شهر، وتجديد غيره للحصول على مهلة في الدفع.

فأخذ الزوج يعمل في المساء في تنظيم حسابات أحد التجار، وكثيرًا ما كان يقوم في الليل بنسخ بعض الصفحات لقاء ربع فرنك للصفحة.

واستمرت الحياة على هذا النحو عشر سنوات.

وبعد عشر سنوات كانا قد أديا الدين كله.. كله بما في ذلك الأرباح، والفوائد المتراكمة.

وبدت مدام لوازيل عند ذاك عجوزًا، وصارت أشبه بالفقراء من النساء، خشنة ذات جفاء، شعثاء الشعر، مقلوبة الثوب، حمراء اليد، وأصبحت تتحدث بصوت مرتفع، وتغسل أرض الغرفة بالماء الغمر وكانت تجلس قرب النافذة أحيانًا، وزوجها في عمله، وتفكر في تلك الحفلة الراقصة التي بدت فيها في أوج فتنتها وقمة مجدها.

ما الذي كان يحدث لو لم تفقد العقد؟ من يدري؟ من يدري؟ يا لها من حياة عجيبة متقلبة! وما أتفه ما يسبب لك فيها السعادة أو الشقاء!

وفي يوم من أيام الآحاد وبينما هي تتجول في شارع الشانزلزيه، لتستريح من عناء العمل طوال الأسبوع، لمحت فجأة امرأة تنزه طفلها. كانت هي صديقاتها مدام فورستييه، إنها ما برحت شابة فاتنة.

وجاشت نفس مدام لوازيل.. هل تحدثها؟ نعم بكل تأكيد. الآن وقد أدت كل الديون.. ستفضي إليها بكل شيء، ولم لا؟

فاقتربت منها قائلة:

– عمي صباحًا يا جان!

ولم تتعرف عليها السيدة الأخرى، ودهشت إذ تناديها امرأة من العامة بهذه الألفة. وتمتمت تقول:

– ولكن يا سيدتي.. لست أدري، لقد أخطأت ولاشك..

– كلا فأنا ماتيلدا لوازيل.

وأطلقت صديقاتها صرخة تعجب:

– أوه! يا عزيزتي المسكينة ماتيلدا! لكم تغيرت؟

– نعم، لقد ذقت أياما عصيبة مذ رأيتك لآخر مرة، ومرت بي محن كثيرة، وكل هذا بسببك أنت!

– بسببي أنا؟ وكيف كان ذلك؟

– أتذكرين جيدًا ذلك العقد الماسي الذي أعرتني إياه، لأذهب إلى حفلة الوزارة؟

– نعم.. وبعد؟

– وبعد.. لقد فقدته!

– كيف.. لقد رددته إلي؟

– لقد رددت إليك عقدًا آخر يشبهه تمام الشبه، ومرت علينا عشر سنوات ونحن نسدد ثمنه، فلم يكن ذلك ميسورًا علينا كما تعلمين، ونحن لا نملك شيئًا. وأخيرًا لقد انتهى الأمر، وإنني لجد راضية.

وتوقفت مدام فورستييه:

– أتقولين إنك اشتريت عقدًا من الماس لكي تعوضيني عن عقدي؟

– نعم! ألم تلاحظي ذلك؟ هه؟ كانا متشابهين تمام الشبه؟

وكانت تبتسم ابتسامة كلها زهو وسذاجة.

وأمسكت مدام فورستييه بيديها في تأثر بالغ وقالت:

– أوه! يا عزيزتي المسكينة ماتيلدا! لكن عقدي كان من الماس الزائف. وما كان ثمنه يزيد على خمسمائة فرنك!

أين أبوك ؟

دقت الساعة الثانية عشرة، وفتح باب المدرسة فأسرع الأطفال يتدافعون بالأيدي خارجين. ولكنهم بدلًا من أن يتفرقوا على عجل، ويعودوا إلى بيوتهم للغداء، كعادتهم كل يوم، وقفوا على بعد خطوات واجتمعوا زمرًا يتهامسون.

ذلك لأن سيمون ابن "البلانشوت" قد دخل مدرستهم لأول مرة هذا الصباح.

وكانوا جميعا قد سمعوا أحاديث أهليهم عن البلانشوت، تلك التي كانت تقابل مقابلة طيبة في المجتمعات العامة، فإذا خلت الأمهات إلى أنفسهن تحدثن عنها فيما بينهن حديثًا مشفقًا يشوبه شيء من الاحتقار، وسرى ذلك الشعور إلى الأطفال دون أن يدركوا له كنها.

أما سيمون فلم يكونوا يعرفونه لأنه كان رهين الدار، لم يكن يخرج أبدًا، فهو لم يلعب معهم قط في طرقات القرية أو على ضفاف النهر، ولذلك فهم لا يحبونه. وقد قابلوا هذه العبارة– التي قالها صبي في الرابعة أو الخامسة عشرة وهو يغمز بعينيه– بشيء من الفرح وكثير من الدهشة وراحوا يرددونها الواحد تلو الآخر:

– أتعرفون سيمون.. إنه ولد لا أب له!

وظهر ابن البلانشوت بدوره على عتبة المدرسة.

كان في السابعة أو الثامنة من عمره، شاحب الوجه شيئًا ما، نظيفًا جدًا، خجلًا، يكاد أن يتعثر.

وكان عائدًا إلى البيت عندما أخذت جماعات من زملائه تلتف به وهم لا يزالون يتهامسون، وينظرون إليه تلك النظرات الخبيثة القاسية، التي تلمحها في أعين الأطفال، حين يدبرون أمرًا. وانتهى بهم التدبير أن أحاطوا به تمامًا. وبقي هو في مكانه لا يريم حراكًا، مبهوتًا مرتبكًا لا يعرف ماذا هم فاعلون به، ولكن الصبي الذي جاء بالخبر، سأله وهو يزهو بما أحرز من نجاح:

– ما اسمك؟ أنت؟

فأجاب:– "سيمون".

فاستطرد الآخر يقول:– "سيمون ماذا؟"

فأجاب الفتى وهو جد خجل:– "سيمون".

وصاح به الصبي: "إن الإنسان يسمى سيمون وشيئا آخر.. أن سيمون هذا ليس اسمًا.. سيمون".

فأجاب المسكين للمرة الثالثة وقد أشرف على البكاء:

– اسمي سيمون.

وأخذ الأطفال يتضاحكون. ورفع الفتى المنتصر صوته:– "وهكذا يتضح لكم أنه لا أب له".

وأطبق الصمت. فقد أخذت الأطفال الدهشة لهذا الأمر الغريب المستحيل الفظيع– طفل لا أب له!– وأخذوا ينظرون إليه كأنه ظاهرة غريبة، كأنه مخلوق عجيب، وأحسوا في أنفسهم بالازدراء الذي تضمره أمهاتهم للبلانشوت، ذلك الازدراء الذي لم يفهموا له سببًا قبل الآن.

أما سيمون فكان قد استند إلى شجرة حتى لا يهوي على الأرض. وظل كأن مصيبة فادحة لا نجاة منها قد صرعته. وحاول أن يفسر حالته، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجد ما يرد به عليهم، لينفي هذا الشيء الفظيع: "إنه لا أب له!". وأخيرًا لم يجد مفرًا فصاح بهم شاحب الوجه:- "نعم لي أب!".

فسأله الفتى:- "وأين هو؟".

وسكت سيمون.. لم يكن يعرف بماذا يجيب وتضاحك الأولاد واشتد هياجهم. وأبناء الريف الذين يعيشون على مقربة من الحيوانات كانوا يستشعرون تلك الرغبة القاسية التي تدفع الدجاجات إلى الإجهاز على الدجاجة التي تجرح منها. ووقع نظر سيمون فجأة على جار صغير، فقد أباه، كان يراه دائمًا مثله وحيدًا مع أمه، فقال له:

- وأنت أيضًا، ليس لك أب.

فقال الآخر:- بل إن لي أبا.

فقال سيمون:- وأين هو؟

فأعلن الطفل في زهو وخيلاء: - لقد مات.. إنه في المقبرة.. أبي.

وسرت غمغمة الموافقة بين الأطفال، وكأن وجود ذلك الأب في القبر قد رفع من شأن رفيقهم وخفض من قدر الآخر الذي لم يكن له أب على الإطلاق. أما هؤلاء الأطفال- وجل آبائهم رجال أشرار، مدمنو خمر، ولصوص قساة غلاظ مع زوجاتهم- فقد أخذوا يتدافعون بالأيدي، ويتزاحمون ويضيقون الخناق شيئًا فشيئًا، وكأنهم وهم الأبناء الشرعيون، يريدون أن

يضغطوا ضغطة واحدة ليخنقوا هذا الذي لا يحميه شرع ولا قانون.

وفجأة صاح أقربهم إلى سيمون وهو يخرج له لسانه بطريقة خبيثة:

- بلا أب، بلا أب! أين أبوك؟ أين أبوك؟

فقبض عليه سيمون من شعره بكلتا يديه، وأخذ يشبعه ركلًا في ساقيه ويعضه في خده بقسوة في الوقت عينه، وتدافع الأولاد بشدة. وفرق بينهما. وفي غمضة عين، وجد سيمون نفسه مضروبًا ممزق الثياب، مثخنًا بالجراح، ممرغًا في التراب، وسط دائرة من الأطفال الذين يضجون ويصفقون. وبينما كان ينهض وهو ينظف بيديه- دون شعور- قميصه المتسخ بالتراب، صاح به أحدهم:

- اذهب وأخبر أباك بذلك.

عندئذ أحس بقلبه يتحطم. كانوا أقوى منه، ولقد ضربوه، ولم يستطع أن يرد عليهم، لأنه كان يشعر أنه لا أب له حقا. وحاول لحظة أن يقاوم في كبرياء الدموع التي تخنقه ثم لم يستطع أكثر من ذلك، فراح يبكي وينتحب نحيبًا قويًا.

وحينئذ أشرقت وجوه أعدائه بفرح وحشي. وكما يفعل المتوحشون في أفراحهم الفظيعة، أمسك كل منهم بيد زميله، وأخذوا يرقصون دائرين حوله، وهم يرددون كما لو كانوا يرددون قافلة أغنية:

- بلا أب بلا أب! أين أبوك؟.. أين أبوك؟

غير أن سيمون كف فجأة عن النحيب وقد تملكته ثورة جارفة. كانت هناك أحجار تحت قدميه. فالتقطها وأخذ يلقيها بكل قواه على جلاديه.

وأصيب اثنان أو ثلاثة وفروا وهم يصرخون، وكان يبدو مهولًا مخيفًا حتى أن الذعر ساد بين الآخرين، فتبدوا وفروا جبناء مثلهم في ذلك مثل الجماهير إذا واجهت رجلًا ثائرًا لا يبالي شيء.

ولما أصبح الطفل الذي لا أب له وحيدًا، أخذ يركض نحو الحقول، ذلك لأن ثمة ذكرى قد عادت إليه فحملته على أن يتخذ قرارًا: كان يريد أن يغرق نفسه في ماء النهر.

فقد تذكر أن رجلًا بائسًا كان يعيش على التكفف، ألقى بنفسه في النهر منذ ثمانية أيام، لأنه لم يعد يملك نقودًا. وكان سيمون حاضرًا عندما انتشلوه، وكان الرجل البائس في حالة يرثى لها، قذرًا زري الهيئة، وأدهش سيمون مظهره المستسلم وخداه الشاحبان ولحيته الطويلة المبتلة، وعيناه المفتوحتان الهادئتان كل الهدوء. وقال المحيطون به: "لقد مات". وأضاف واحد منهم: "إنه لسعيد حقا الآن!" وشاء سيمون أن يغرق نفسه، لأنه لا أب له. فهو شبيه بهذا التعس الخالي الوفاض.

وبلغ الصبي النهر، وتأمل مياهه الجارية، وكانت بعض سمكات تمرح في هذا التيار الصافي، وتقفز بين حين وحين قفزات قصيرة، وتتصيد الذبابات التي تحلق على سطح المياه. وكف عن البكاء ليشاهدها. فقد جذبت حيلها انتباهه. ولكن هذه الفكرة كانت تعاوده من وقت لآخر في ألم ممض: "سأغرق نفسي لأنه لا أب لي!" كانت تراوده كما تهب فجأة أثناء هدوء العاصفة، هبة من الريح شديدة تهوي بالأشجار ثم لا تلبث أن تغيب وراء الأفق.

وكان الجو شديد الحرارة صحوا.. وكانت الشمس الوادعة تدفئ العشب، والمياه تلمع كمرآة مجلوة. وكان سيمون يمر بلحظات من الراحة، من هذا التراخي الذي يعقب البكاء، فيحس أثناءها برغبة شديدة في النوم فوق العشب في هذا الجو الدفيء.

وقفزت ضفدعة صغيرة خضراء تحت قدميه. وحاول أن يمسك بها. ولكنها أفلتت منه. فلاحقها وأخطأها ثلاث مرات متعاقبة، ثم أمسك بها آخر الأمر من طرف قدميها الخلفيتين واستغرق في الضحك وهو يلاحظ جهود الحيوان في سبيل الخلاص. كانت تجمع قوتها في ساقيها ثم تفردهما بغتة في انطلاقة مفاجئة، تفردهما صلبتين كقضيبين من حديد، بينما استدارت عيناها وهي تخبط الهواء بساقيها الأماميتين اللتين كانتا تتحركان كاليدين. وذكره ذلك بلعبة خشبية عليها جنود صغار يتحركون حركة مشابهة. عندئذ فكر في بيته ثم في أمه، وعاود البكاء وقد تملكه حزن شديد. وتمشت رعدة في أطرافه فخر جاثيا على ركبتيه وتلا صلاته كما يفعل قبل النوم. ولكنه عجز عن أن يتمها، إذ عاوده النحيب بسرعة وبشدة بحيث استحوذ عليه كلية. فلم يعد يرى شيئًا حوله، ولم يكن يشغله غير البكاء.

وفجأة أتكأت يد ثقيلة على كتفه وسأله صوت أجش: "ما الذي يسبب لك كل هذا الحزن يا بني؟".

والتفت سيمون. فألفى عاملًا طويل القامة ملتحيًا، أسود الشعر مجعدة، ينظر إليه وقد بدت عليه أمارات الطيبة. فأجاب والدموع تملأ عينيه وتغص بها حنجرته:

- لقد ضربوني.. لأنني.. إنني.. لا أب لي.

فقال الرجل وهو يبتسم:- "كيف ولكن الناس جميعا لهم أب!"

واستطرد الطفل يقول في عسر وسط تشنجات حزينة:- "أنا.. أنا.. ليس لي أب!".

حينئذ بدت سمات الجد على وجه العامل، فقد عرف فيه ابن البلانشوت. وعلى الرغم من أنه كان حديث عهد بالبلدة، ألا أنه كان قد سمع قصتها في شيء من الغموض، فقال له:

- هيا، رفه عن نفسك يا بني، وتعال معي إلى أمك، وسنجد لك.. أبا.

وسارا في طريقهما، وقد أمسك الكبير بيد الصغير، وكان الرجل يبتسم، فلن يزعجه أن يرى البلانشوت التي كانت كما يقولون، من أجمل فتيات البلدة، ولعله كان يقول بينه وبين نفسه أن شابة أخطأت فيما مضى، قد تخطئ مرة أخرى.

ووصلا أمام بيت صغير أبيض، بادي النظافة.

فقال الطفل: -"هنا". ثم صاح مناديًا: -"أمي!"

وظهرت امرأة، وكف العامل فجأة عن الابتسام بمجرد أن رآها. فقد أدرك في الحال أن أحدًا لا يستطيع أن يهزل مع هذه المرأة الطويلة القامة، الشاحبة الوجه التي وقفت عابسة على الباب، كما لو كانت تدفع عن عتبة هذا البيت أي رجل بعد أن خدعها فيه رجل آخر. فغمغم يقول واجف القلب، وقد أمسك قبعته في يده:

- إليك يا سيدتي، إنني أعيد إليك ولدك الصغير، الذي ضل طريقه بقرب النهر.

ولكن سيمون وثب إلى عنق أمه وقال لها، وقد عاوده البكاء:

– كلا يا أمي! لقد أردت أن أغرق نفسي، لأن الأطفال ضربوني.. ضربوني لأنه لا أب لي!

وصبغت حمرة كاوية وجنتي المرأة الشابة وأحست آلامًا ممضة، فاحتضنت ولدها في عنف، بينما أخذت الدموع تنهمر سريعة على وجهها. وتأثر الرجل وبقى لا يدري كيف يتصرف. لكن سيمون جرى نحوه فجأة وقال له:

– أتريد أن تكون أبي؟

وخيم صمت عميق. واتكأت البلانشوت على الحائط صامتة، ووضعت يديها على قلبها وقد مزقه الخجل. ولما رأى الطفل أن أحدًا لم يجبه بشيء، استطرد يقول:

– إذا كنت لا تريد فسأعود لأغرق نفسي.

فأخذ العامل الأمر على مأخذ الهزل وأجابه ضاحكًا:

– أي نعم.. إنني أريد.

وعندئذ سأله الطفل.

– ما اسمك إذن.. حتى أرد على الآخرين الذين يريدون معرفة اسمك؟

فأجاب الرجل: "فيليب".

فصمت سيمون لحظة لكي يثبت هذا الاسم في ذهنه ثم مد إليه ذراعيه وقد سرى عنه وهو يقول:

– حسنا يا فيليب.. إنك أبي!

فرفعه العامل عن الأرض وقبله فجأة على وجنتيه، ثم هرب مسرعًا في خطى واسعة.

وعندما دخل الطفل إلى المدرسة في اليوم التالي، استقبلته ضحكة شريرة. ولما حاول صبي الأمس أن يكرر فعلته ساعة الخروج، قذف سيمون بهذه الكلمات على رأسه كما لو كانت حجرًا: "إن أبي يسمى فيليب!"

وانبعثت الضحكات من كل جانب.

– فيليب من؟ فيليب ماذا؟ ماذا يكون هذا الفيليب؟ أين عثرت على فيليب هذا؟

ولم يجب سيمون بشيء. وكان ينظر إليهم نظرات التحدي، فقد رسخت عقيدته، وكان على استعداد لأن يتركهم يعذبونه ولا يهرب من أمامهم. وخلصه المعلم من براثنهم وعاد إلى أمه.

ومرت ثلاثة شهور كان العامل خلالها يمر كثيرًا بالقرب ن بيت البلانشوت، وكان يجترئ في بعض الأحيان فيكلمها كلما رآها تخيط بجوار النافذة. وكانت ترد عليه ردًا مهذبًا وقورًا على الدوام دون أن تضحك معه أو تسمح له بالدخول إلى بيتها. ومع ذلك فقد كان على شيء من الغرور مثل غيره من الرجال جميعا، فزعم لنفسه أن وجهها تعلوه الحمرة كلما تحدثت إليه.

إلا أنه من الصعب استعادة سمعة ساءت، فهي تبقى دائمًا واهنة يلغ فيها الناس. وهذا هو ما حدث على الرغم من تحفظ البلانشوت واعتزازها بنفسها.

أما سيمون فقد أحب أباه الجديد حبًا جمًا، وطفق يتنزه معه كل مساء تقريبًا في آخر النهار. وكان مواظبًا على الذهاب إلى المدرسة، وكان يسير بين زملائه متشامخًا، لا يرد عليهم أبدًا.

ومع ذلك فقد قال له الفتى الذي كان أول من هاجمه:

– لقد كذبت، ليس لك أب يدعى فيليب.

وسأله سيمون وقد بلغ به التأثر:

– ولم هذا؟

وفرك الفتى يديه واستطرد يقول:

– لأنه.. لو أن لك أبا لكان زوجًا لأمك!

واضطرب سيمون أمام صحة هذا التعليل. ومع ذلك فقد أجاب: "إنه أبي على كل حال!"

فقال الفتى ساخرًا:

– هذا جائز، ولكنه ليس أباك تمامًا!

وخفض ابن البلانشوت رأسه وسار مستغرقًا في التفكير نحو دكانة المعلم "لوازون" الحداد، حيث كان يعمل فيليب.

وكانت هذه الدكانة تبدو كالمدفونة بين الأشجار، تسودها عتمة شديدة، والوميض الأحمر المنبعث من موقد كبير يلقي ضوءًا شديدًا من وقت لآخر على خمسة حدادين عراة الأذرع، يطرقون الحديد على سنادينهم محدثين ضجة فظيعة.

وكانوا وقوفا يلفحهم اللهب كأنهم شياطين، وقد ثبتت عيونهم على الحديد المتقد الذي يعذبونه بأيديهم، وكان فكرهم المثقل يتبع مطارقهم صعودًا وهبوطًا.

ودخل سيمون دون أن يراه أحد، وذهب في هدوء فجذب صديقه من كمه. والتفت الصديق إليه، وتوقف العمل فجأة، ونظر الرجال جميعا إليه في يقظة شديدة. وعندئذ ارتفع صوت سيمون الواهن الصغير وسط هذا السكون غير المألوف.

– قل لي بربك يا فيليب. أخبرني ابن "الميشود" منذ قليل، أنك لست أبي تمامًا.

وسأل العامل:

– ولم هذا؟

وأجاب الطفل في سذاجة تامة:

– لأنك لست زوجًا لأمي!

ولم يضحك أحد، وظل فيليب واقفًا، وقد أسند جبهته على ظهر يديه الخشنتين المعتمدتين على مقبض مطرقته المنتصبة على السندان. كان يحلم، وكان رفاقه الأربعة ينظرون إليه. وكان سيمون ينتظر قلقًا، وكأنه قزم بين هؤلاء العمالقة. وفجأة قال أحد الحدادين مرددًا فكرة الجميع:

– إن البلانشوت فتاة طيبة ماهرة على كل حال. وهي شجاعة حسنة السلوك على الرغم من كارثتها، وستكون زوجة جديرة برجل أمين.

فقال الرجال الثلاثة الآخرون:– "هذا حق!".

واستطرد العامل يقول:

– هل الذنب ذنبها إذا كانت قد سقطت؟ لقد وعدت بالزواج. وأنا أعرف أكثر من واحدة فعلت فعلتها، ويحترمها الناس اليوم.

وأجاب الثلاثة في صوت واحد:

– هذا حق.

واستطرد هو يقول: –"كم شقيت هذه المسكينة لتربي ولدها وحدها، وكم بكت مذ كانت لا تخرج إلا لتذهب إلى الكنيسة. إن الله وحده هو الذي يعرف ذلك.

فقال الآخرون: –"هذا حق أيضًا!"

ولم يعد أحد يسمع حينئذ إلا صوت المنفاخ الذي كان يذكي نار الموقد، وفجأة انحنى فيليب على سيمون وقال له:

– اذهب وقل لأمك إنني سآتي لأتحدث معها هذا المساء.

ثم دفع الطفل من كتفيه خارج الدكانة.

وعاد إلى عمله. وسقطت المطارق الخمس دفعة واحدة على السنادين من جديد. وظلت تطرق الحديد حتى الليل، قوية شديدة فرحة راضية عن عملها، وكما يعلو صوت ناقوس الكنيسة الضخم أيام الأعياد على أصوات النواقيس الأخرى، كذلك كانت الطرقات المنبعثة من مطرقة فيليب تعلو على أصوات مطارق الآخرين، وتثير بين لحظة وأخرى، ضجة تصم الآذان. وكان واقفًا وسط الشرر يطرق الحديد بشغف وهو متقد العينين.

وعندما جاء يدق باب البلانشوت، كانت النجوم تملأ السماء. كان يرتدي سترة الأحد وقميصًا نظيفًا، وقد حلق ذقنه. وظهرت المرأة على عتبة الباب، وقالت له وقد بان عليها الألم:

– ليس من اللائق أن تأتي هكذا في الليل، يا سيد فيليب!

وأراد أن يجيب فتلعثم وظل خجلًا أمامها.

واستطردت تقول:

– أنت تفهم جيدًا، يجب ألا يتحدث الناس عني، على كل حال!

وعندئذ، قال هو فجأة:

– وماذا يهمنا، إذا كنت توافقين على أن تكوني زوجتي!

ولم يجبه أي صوت. وخيل إليه أنه قد سمع صوت جسم يتهاوى في الظلام. فدخل على عجل. كان سيمون راقدًا في سريره، فسمع صوت قبلة، وبضع كلمات تهمس بها أمه بصوت خفيض جدًا. ثم أحس بنفسه فجأة محمولًا بين ذراعي صديقه. وصاح صديقه به وهو يحمله بين ذراعيه المفتولتين القويتين:

– ستقول لزملائك: أن آباك هو فيليب ريمي الحداد، وأنه سيعرك أذن كل من يسيء إليك.

وفي اليوم التالي، عندما امتلأت المدرسة، وكادت تبدأ الدروس، نهض سيمون، شاحب الوجه، مرتعش الشفتين وقال في صوت جلي: –"أبي هو فيليب ريمي الحداد، وقد وعد بأن يعرك أذني كل من يسئ إلي!

ولم يضحك أحد هذه المرة، لأنهم جميعا كانوا يعرفون جيدًا فيليب ريمي هذا، الحداد. وكان هذا الرجل أبا جديرًا بأن يفخر الكل بالانتساب إليه.

برتا

كان صديقي العجوز (وللإنسان أحيانًا أصدقاء يكبرونه في السن بكثير)، أقول كان صديقي العجوز الدكتور بونيه قد دعاني مرارًا لقضاء بعض الوقت معه في داره ببلدة ريوم. ولم أكن أعرف مقاطعة أوفرنى من قبل فعزمت أن أستجيب لدعوته في منتصف الصيف من عام ١٨٧٦.

وصلت في قطار الصباح، وكان وجه الطبيب أول وجه طالعني على رصيف المحطة. كان يرتدي حلة رمادية وقبعة مستديرة سوداء من اللبد الرخو، عريضة الحافة، ذات قلب عال يضيق كلما ارتفع متخذًا شكل ماسورة مدخنة. وهي قبعة من قبعات الفحامين. وكان الطبيب في هذا الزى، أشبه بعجوز متصاب، بجسمه النحيل الرقيق وسترته الزاهية اللون، ورأسه الكبيرة ذات الشعر الأبيض.

وعانقني بحرارة أهل الريف وفرحهم عندما يلتقون بأصدقاء لهم شاقتهم رؤيتهم. وصاح يملأه الزهو، وهو يمد يديه حوله: "هذه هي مقاطعة أوفرنى!". ولم أكن أرى أمامي غير سلسلة من الجبال، قممها أشبه بالمخروطات المقصوفة الرأس، ولابد أنها براكين قديمة خامدة.

ثم رفع أصبعه مشيرًا إلى اسم المحطة، المكتوب في أقصاها وقال:

– "ريوم، موطن القضاة ومفخرة القضاء وكان الأجدر أن تكون موطن الأطباء".

وسألت: -"لماذا؟"

فأجاب ضاحكًا: "لماذا؟ اقلب هذا الاسم تحصل على كلمة "مورى Mori" يعني "موريرِ Mourir" لذلك، أقمت في هذا البلد". وقادني وهو يفرك يديه سعيدًا بنكتته.

وما كدت أنتهي من تناول فنجان من القهوة باللبن حتى خرجت لزيارة المدينة العتيقة. وأعجبني بيت الصيدلي وغيره من الدور المشهورة، وهي كلها سوداء ولكنها بواجهاتها الحجرية المحفورة جميلة جمال التحف الطريفة. وأعجبت بتمثال العذراء، شفيعة الجزارين. ولقد سمعت بهذا الخصوص قصة طريفة سأقصها ذات يوم. ثم قال لي الدكتور بونيه: "والآن هل تسمح لي بخمس دقائق لأعود إحدى المريضات وبعدها سأذهب بك إلى تل "شاتل – جويون Chatel- Guyon" قبل الغداء لأريك المنظر العام للمدينة من عل، وسلسلة جبال "بوى دى دوم Puy de Dome بأكملها. انتظرني على الطوار، فسأصعد وأنزل في الحال.

وتركني أمام إحدى هذه الدور الريفية القديمة المعتمة، المغلقة، الصامتة، الكئيبة. وبدت لي هذه الدار مقبضة الشكل. واكتشفت سبب ذلك بعد قليل. كانت النوافذ الكبيرة في الطابق الأول قد سدت كلها إلى وسطها بحواجز خارجية صنعت من الخشب المصمت، ولا يفتح من النافذة إلا الجزء العلوي منها وحده، كما لو كانوا قد أرادوا أن يمنعوا السكان المحبوسين في هذا الصندوق الحجري الكبير من النظر إلى الطريق.

ولما نزل الطبيب، أفضيت له بملاحظتي فأجاب: -"لم تخطيء فيما

ذهبت إليه، إن المخلوق البائس الحبيس داخل هذا المكان لا يرى ما يحدث في الخارج قط، إنها فتاة مخبولة أو بالأحرى بلهاء أوسمها ملتاثة العقل، وهي ما تطلقون عليه أنتم يا أهل نورمانديا كلمة **Niente** آه! أصغ إلي، إنها قصة محزنة وهي حالة مرضية فريدة في نوعها في نفس الوقت، هل تحب أن أقص عليك قصتها؟

فوافقت فاستطرد يقول:

إليك القصة. منذ عشرين سنة ولد لأصحاب هذه الدار، وهم من عملائي، ولد لهم مولود، وكانت فتاة ككل الفتيات.ولكني لم ألبث أن لاحظت أنه إذا كان جسم هذه الصغيرة ينمو باضطراد خير نمو، فإن عقلها قد بقى جامدًا، لا حياة فيه.

وتعلمت المشي في وقت مبكر جدًا، لكنها لم تتكلم البتة. وحسبتها صماء أول الأمر، ثم أدركت أنها تسمع جيدًا وإن كانت لا تعي شيئًا. كانت الأصوات العنيفة تجعلها تتفزز وترعبها دون أن تدرك لها سببًا.

وكبرت، وكانت رائعة الحسن ولكنها بكماء، بكماء بسبب افتقارها إلى الإدراك. وحاولت بمختلف الوسائل أن أدخل في رأسها بصيصا من التفكير، وخابت محاولاتي. وخيل إلي أنها تتعرف على أمها عندما كانت ترضعها ولكنها لم تكد تفطمها حتى وضح أنها لا تعرفها. ولم تستطع قط أن تفوه بأول كلمة ينطق بها الأطفال وآخر كلمة يقولها الجنود وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة في ساحات القتال "أمي". وكانت ترسل أحيانًا تمتمات وصرخات ولا أكثر من ذلك.

وكانت إذا صحا الجو، تضحك طول الوقت وهي ترسل صيحات رقيقة يمكن أن نشبهها بزقزقة العصافير، وكانت تبكي إذا أمطرت السماء، وتئن أنينًا مفجعًا مرعبًا، يشبه شكاة الكلاب وهي تعوي ساعة الموت.

وكانت تهوي التمرغ على العشب، على طريقة الحيوانات الفتية، وتحب الجري وهي لا تلوي على شيء. وكانت تصفق بيديها كل صباح إذا رأت الشمس تدخل غرفتها. وعندما كانوا يفتحون نافذتها كانت تصفق بيديها وهي تضطرب على فراشها حتى يلبسوها ثيابها في الحال.

وكانت فوق ذلك لا تميز بين الناس قط. فهي لا تميز أمها من الخادمة ولا تعرف أباها مني، ولا تفرق بين الحوذي والطباخة.

وكان يربطني بوالديها التعسين رباط المودة. وكنت أذهب كل يوم تقريبًا لزيارتهما. وكثيرًا ما كنت أتغذى عندهما أيضًا، مما أتاح لي أن ألاحظ أن برتا– وقد أسموها كذلك– تميز ألوان الطعام وتؤثر بعضها على بعض.

وكانت عند ذاك في الثانية عشرة من عمرها. وقد صارت بنيتها بنية فتاة في الثامنة عشرة، وكانت أطول مني قامة.وخطر لي أن أنمي شراهتها، وأحاول بهذه الوسيلة، أن أدخل في ذهنها إدراك بعض الفروق البسيطة، فاضطرها عن طريق التفريق بين الأذواق أو درجات الطعوم، أن لم يكن إلى التفكير، فعلى أقل تقدير إلى ذلك التمييز الفطري الذي يقارب التفكير.

وكان علينا أن نستطرد بعدئذ إلى اختيار المناسب من ميولها بحيث نصل إلى أن يتفاعل الشيء الذي تهواه مع عقلها تفاعلًا يحاكي الصدمة الكهربية.

ولذلك وضعت أمامها ذات يوم صحيفتين، في الأولى حساء وفي الثانية "كريمة بالفانيليا"، كثيرة السكر. وجعلتها تذوق الواحدة تلو الأخرى. ثم تركتها حرة تختار ما تريد، فأكلت صحيفة الكريمة.

ولم يمض وقت طويل حتى جعلتها شرهة للغاية، شرهة بحيث كانت تبدو وليس في ذهنها غير فكرة أو بالأحرى غير رغبة واحدة هي: الأكل. وأصبحت تعرف جيدًا ألوان الطعام. فكانت تمد يدها إلى الأصناف التي تعجبها. وتستولي عليها في شراهة. وتبكي إذا أبعدت عنها.

وفكرت عندئذ، أن أعلمها أن تذهب إلى غرفة المائدة عندما ندق لها ناقوسًا. فاستلزم ذلك وقتًا طويلًا! ولكني وصلت إلى ما أبغيه فنشأ من غير شك في إدراكها المبهم علاقة ما بين الصوت والذوق أو قل علاقة بين حاستين، وتداع بين واحدة وأخرى ثم بالتالي ترابط بين الأفكار، إذا أمكن أن نسمي أفكارًا ذلك الرباط الغريزي بين وظيفتين عضويتين.

وتقدمت إلى أبعد من ذلك في تجربتي فعلمتها– في عناء بالغ– كيف تتعرف على أوقات الأكل بملاحظة ميناء ساعة الحائط.

واستحال على مدة طويلة، أن أوجه انتباهها إلى عقربي الساعة، ولكني توصلت إلى أن أجعلها تلاحظ جرس الساعة. واستعملت في ذلك وسيلة يسيرة، إذ ألغيت الناقوس الذي يدق ساعة الطعام، وكان الجميع ينهضون ليذهبوا إلى المائدة، إذا أعلنت المطرقة النحاسية الصغيرة الساعة الثانية عشرة.

وجاهدت، فعلا وبلا جدوى، في تعليمها أن تعد دقات الساعة. لقد كانت تسرع نحو الباب كلما سمعت دقات الساعة، ولكنها أدركت شيئًا

فشيئًا أن الدقات لا تؤدي معنى واحدًا فيما يتصل بوجبات الطعام. وكانت عينها تتبع أذنها، وتتركز أغلب الأحيان على ميناء الساعة.

ولما لاحظت ذلك، عنيت أن أذهب إلى المنزل كل يوم في الظهر وفي الساعة السادسة مساء، وأن أضع أصبعي على رقم أثنى عشر ورقم ٦ عندما تحين اللحظة التي تترقبها. ولم ألبث أن لاحظت أنها تتابع في انتباه، حركة العقربين، اللذين طالما أدرتهما أمامها.

وهكذا فهمت، أو بالأحرى فطنت. لقد نجحت في أن أدخل في ذهنها معرفة الزمن أو بتعبير أصح الإحساس به. كما هو الحال مع سمك الشبوط الذي أمكن إثارة الشعور بالزمن لديه بمجرد تقديم الطعام له في أوقات معينة.

ولما وصلت إلى هذه النتيجة، أصبحت كل ساعات المنزل، تشغل انتباهها شغلًا تامًا. فكانت تمضي وقتها في التطلع إليها، والإنصات لها مترقبة مرور الساعات. بل إن أمرًا غريبًا قد حدث؛ تعطل جرس إحدى الساعات الحائطية الجميلة من طراز لويس السادس عشر، وكانت معلقة فوق فراشها، فأثار ذلك انتباهها. كانت قد ثبتت عينيها على العقربين منذ عشرين دقيقة منتظرة أن يعلن الجرس الساعة العاشرة. لكن لما تجاوز عقرب الساعة الرقم، بهتت لأنها لم تسمع شيئًا واشتد بها الدهش فجلست، يحركها من غير شك، أحد تلك الانفعالات العنيفة أمام تلك المصائب الفادحة، وتملكها صبر غريب فبقيت أمام الآلة الصغيرة حتى الساعة الحادية عشرة، لترى ماذا سيحدث. وعندئذ تملكها فجأة، غضب مجنون، كذلك الذي يسيطر على من

خابت آماله أو قل إنه رعب من يهلع أمام سر رهيب أو نفاد صبر فظيع يصيب إنسانًا مشبوب العاطفة إذا اصطدم في طريقه بعقبة كأود. فتناولت ملقط المدفأة وضربت به الساعة ضربة شديدة حطمتها في لحظات.

إذن فقد كان عقلها يعمل ويحسب بطريقة غامضة وفي حدود ضيقة جدًا. ولم أستطع أن أجعلها تميز الأشخاص كما تميز الأوقات. وكان لابد للحصول على لفتة من ذهنها أن نلجأ إلى عواطفها، بالمعنى المادي للكلمة.

وقد أتانا بعدئذ دليل على صحة هذا ولكنه للأسف دليل مفجع.فقد غدت برتا فتاة رائعة الحسن، وكانت في الحق مثالًا لبنات حواء، فكأنها فينوس آلهة الجمال وإن كانت بلا عقل وبلا حكمة.

كانت عند ذاك في السادسة عشرة ولم أر امرأة تضارعها في اكتمال أنوثتها ورشاقتها وتناسق تقاسيمها.. قلت إنها كفينوس، نعم فينوس شقراء.. ممتلئة.. قوية البنية ذات عينين واسعتين صافيتين زرقاوين كزهرة الكتان، وثغر واسع مستدير الشفتين، ثغر شره، ثغر امرأة، شهوانية، ثغر خلق للقبل.

دخل أبوها على ذات صباح بوجه غريب، وبعد أن اتخذ مجلسه، ودون أن يرد لي تحية الصباح قال:

– أريد أن أنهي إليك أمرًا خطيرًا جدًا.. هل نستطيع.. هل نستطيع أن نزوج برتا؟

وانتفضت من الدهشة وصحت به: "تزوجوا برتا؟ ولكن هذا مستحيل!"

فاستطرد يقول: "نعم.. أعرف.. ولكن فكر يا دكتور.. ربما.. لو أنها

أنجبت طفلًا.. ربما أحدث هذا هزة كبيرة فيها، وسعادة عظيمة.. ومن يدري.. لعل عقلها يصحو عندما تصير أما.."

ووقعت في حيرة شديدة.. هذا صحيح.. فلعل هذا الحدث الجديد، لعل هذه الغريزة العجيبة، غريزة الأمومة، التي تختلج في قلوب الحيوانات كما تنبض بها قلوب النساء، تلك الغريزة التي تدفع الدجاجة إلى أن تلقي بنفسها أمام فم الكلب الكاسر لتدافع عن أفراخها، لعل هذه الغريزة تحدث ثورة.. تسبب انقلابًا في هذه الرأس الجامدة، يتحرك معه جهاز تفكيرها المعطل.

وتذكرت في الحال إلى جانب ذلك، مثلا خاصًا بي، كنت أملك قبل بضع سنين كلبة صغيرة من كلاب الصيد، وكانت جد غبية بحيث لم أستطع أن أفيد منها شيئًا. وولدت جراء فأصبحت بين عشية وضحاها، لا أقول ذكية، ولكن تكاد تشبه كثيرًا من الكلاب العادية.

ولم أكد ألمح بارقة أمل حتى اشتدت رغبتي في أن نزوج برتا، ولم يدفعني إلى ذلك صداقتي لها ولوالديها البائسين بقدر ما دفعني حب الاستطلاع. ما الذي سيحدث؟.. كانت مشكلة فريدة في نوعها!

وعلى ذلك فقد أجبت والد الفتاة:

– لعلك محق في رأيك.. نستطيع أن نحاول.. جرب.. حاول.. لكن.. لكن.. لن تجد الرجل الذي يقبل الزواج منها قط.

وقال لي هامسًا:

– عندي عريس لها.

ودهشت وتمتمت: "أهو شخصية تليق بها.. أهو واحد من.. وسطكم؟

فأجاب: "نعم.. بالضبط!"

– آه! و.. هل أستطيع أن أسألك عن اسمه؟

– جئت لأطلعك عليه.. ولأستشيرك، إنه السيد جاستون دى بويز دى لوسيل.

وكدت أصيح قائلًا: "يا للمسكين!"، ولكني عقدت لساني وبعد فترة صمت قلت:

– نعم.. حسن جدًا.. أنا لا أرى مانعًا من الزواج.

وشد الرجل المسكين على يدي وقال لي: "سنزوجها في الشهر القادم".

وكان السيد جاستون دى بويز دي لوسيل شابًا متلافًا، من أسرة طيبة، أتى على كل ما ورثه عن أبويه، وأغرق نفسه في الديون بطرق نابية، فهو يبحث إذن عن وسيلة جديدة ليحصل على المال. واهتدى إلى هذه الوسيلة.

ومهما يكن من شيء، فقد كان فتى جميلًا، قوي البنية، لكنه كان من محبي الحياة، واللهو على طريقة بعض أهل الريف، وبدا لي زوجًا ملائمًا يمكن التخلص منه فيما بعد، بمنحه راتبًا شهريًا.

وكان يتردد على المنزل متوددًا إلى هذه الفتاة الغبية الجميلة ومختالًا أمامها، ويلوح أنها أعجبته. وكان يحضر لها الأزهار ويقبل يديها ويجلس عند قدميها وينظر إليها بعينين حانيتين، إلا أنها لم تكن تنتبه إلى أية محاولة من

محاولاته، بل لم تكن تميزه مطلقًا من غيره من الأشخاص الذين يعيشون حولها.

وتم الزواج.

وأنت تدرك إلى أي مدى استثير فضولي.

وذهبت في اليوم التالي لأرى برتا، ولأحاول أن أكتشف من وجهها، إن كان ثمة شيء قد تبدل في ذاتها. بيد أني وجدتها على حالها المعهودة.. لا يشغلها من شيء سوى ساعة الحائط والطعام. أما هو، فقد بدا على العكس من ذلك، شغوفًا بها للغاية، وكان يحاول استثارة مرح زوجته وودها بالمداعبات الخفيفة والمعاكسات التي استعملها مع القطط الصغيرة ولم يجد من الوسائل خيرًا من هذا.

وأكثرت من زيارة الزوجين الجديدين، فلم ألبث أن رأيت الزوجة الشابة تعرف زوجها، وتلقي عليه نظراتها الشرهة التي لم تكن تبديها – حتى ذلك الوقت– إلا إلى ألوان الطعام الحلوة.

وكانت تتابع حركاته، وتميز وقع خطاه على السلم، أو في الغرف المجاورة، وتصفق عندما يدخل. وكانت ملامح وجهها الذي تبدل تضيء بوهج من السعادة العميقة.. ومن الرغبة الجامحة.

كانت تحبه بكل جسدها، وبكل روحها، وبكل روحها البائسة المريضة. وبكل قلبها، وبكل قلبها المسكين، قلب الحيوان المعترف بالجميل..كانت في الحق صورة رائعة ساذجة، للعاطفة الجنسية، العاطفة الحية، كما جعلتها الطبيعة في المخلوقات، قبل أن يعقدها الإنسان ويشوهها بمختلف درجات الشعور.

غير أنه سرعان ما سئم هذه المخلوقة الجميلة البكماء الملتهبة العاطفة فلم يعد يقضي بقربها إلا ساعات قليلة من النهار، فقد رأى أن حسبه أن يمنحها لياليه.

وبدأت تتألم.

كانت تنتظره من الصباح إلى المساء، وعيناها مثبتتان على ساعة الحائط. وحتى الطعام لم تعد تهتم به، لأنه كان يتناول أكلاته خارج المنزل دائمًا، في كليرمونت وفي شاتيل جويون وفي رويا، أينما اتفق، لكيلا يعود إلى البيت.

وأصابها الهزال.

واختفت من ذهنها كل فكرة أخرى، كل رغبة أخرى، كل انتظار آخر، كل أمل غامض، كل هذا اختفى تمامًا. وأصبحت الساعات التي لا تراه فيها، ساعات عذاب غليظ بالنسبة إليها. ولم يلبث أن هجر بيته ليلًا، وأخذ يقضي لياليه في كازينو دى رويا، مع بعض النسوة، ولا يعود إلى البيت إلا في ساعات الصباح الأولى.

وكانت ترفض الذهاب إلى فراشها قبل أن يعود، كانت تجلس جامدة بلا حراك على أحد المقاعد، وقد تركزت عيناها على العقربين النحاسيين الصغيرين اللذين كانا يدوران، يدوران دورتهما البطيئة المنتظمة حول ميناء الساعة الخزفي حيث نقشت أرقام الساعات.

وكانت تسمع خبب حصانه من بعيد، فتنهض دفعة واحدة. حتى إذا دلف إلى الغرفة، رفعت أصبعها في حركة أشبه بحركات الأشباح، رفعت أصبعها نحو الساعة، وكأنها تقول له: "انظر كم تأخر الوقت!" وأخذ هو

يستشعر الخوف أمام هذه البلهاء المتيمة الغيور، وكان يثور ثورة الغلاظ الأجلاف. وذات مساء اعتدى عليها بالضرب.

وبعثوا في طلبي. كانت تعول في اهتياج، وقد تملكتها أزمة فظيعة من الألم والغضب والتأثر، وغير ذلك من المشاعر التي لا أعرفها، وهل يعرف المرء ما يمر بمثل هذه النفس المريضة؟

وهدأت من ثائرتها بحقن المورفين. وأمرت ألا ترى هذا الرجل ثانية، إذا أدركت أن الزواج سيؤدي بها إلى الموت، لا محالة.

ثم.. ثم أصبحت مجنونة. نعم يا عزيزي، أصبحت هذه البلهاء مجنونة. إنها تفكر فيه دائمًا، وإنها لتنتظره أبدًا. إنها لا تفتأ تنتظره طيلة النهار والليل نائمة أو يقظانة. وكنت أراها تذوي، وكان نظرها لا يفارق ميناء الساعات أبدًا، فأمرت بأن ترفع من المنزل كل آلات قياس الزمن هذه، وهكذا أبعدت عنها احتمال عد الساعات والبحث دون جدوى في ذكريات غامضة عن اللحظات التي كان يعود فيها في الماضي. وأرجو بمرور الزمن أن أمحو منها آثار الذكرى وأن أطفئ شعاع الفكر الذي كنت قد أشعلته في جهد كبير.

ولقد أجريت منذ أيام تجربة أخرى، قدمت لها ساعتي فأخذتها وتأملتها بعض الوقت، ثم أخذت تصيح صياحًا مفزعًا، وكأن رؤية هذه الآلة الصغيرة أيقظت فجأة ذاكرتها التي كانت قد أخذت في النعاس..

وإنها اليوم لهزيلة.. هزيلة بشكل مخيف، بعينين غائرتين لامعتين وهي لا تكف عن المشي كحيوان سجن في قفص.

وجعلتهم يسورون النوافذ، ويصنعون لها عوارض خارجية عالية ويثبتون

المقاعد في الأرض، ليحولوا بينها وبين النظر إلى الطريق بحثا عنه.

يا للوالدين البائسين، ما أقسي حياتهما وما أمرها؟

وكنا قد وصلنا إلى أعلى التل، والتفت إلى الطبيب وقال: "انظر إلى "ريوم" من هذا المكان!"

وكان مظهر المدينة المعتمة يحاكي منظر المدن العتيقة، وكان يمتد من خلفها على مدى البصر، سهل أخضر كثير الشجر، تنتشر فيه القرى والمدائن، يطفو فوقه دخان خفيف أزرق يشيع السحر في الأفق. وإلى يميني تمتد بعيدًا، جبال عالية تتابع قممها المستديرة أو المقطوعة، وكأنها قدت قدًا بضربة سيف.

وأخذ الطبيب يعدد أسماء البلدان والقمم وهو يروي لي قصة كل واحدة منها.غير أني لم أكن أصغي إليه، ولم أكن أفكر إلا في المجنونة، ولم أكن أرى سواها. كانت تبدو وكأنها تحوم كروح حزينة على هذه الربوع جميعا.

وسألت فجأة:

– وماذا حل به؟.. بالزوج؟

فأجاب صديقي بعد تردد، وقد عراه بعض الدهش: "إنه يعيش في "رويا" على المعاش الذي قرروه له، إنه سعيد يقضي الليالي الحمراء".

وبينما كنا عائدين في خطى بطيئة، وقد شملنا حزن وصمت، مرت بنا عربة إنجليزية الطراز، رمت مسرعة، أتت من خلفنا، يجرها جواد مطهم، ويخب بها خبًا سريعًا.

وأمسك الطبيب ذراعي وقال:

– ها هو ذا!

ولم أر إلا قبعة من اللبد الرمادي مائلة على الأذن فوق كتفين عريضين، ثم غابت وسط سحابة من غبار.

العودة

البحر يجلد الشاطئ بموجه القصير الرتيب، والسحب البيضاء تمرق خلال السماء الصافية الزرقاء، متعجلة كأنها طيور تسوقها رياح هوجاء، والقرية تصطلي الشمس في حمى الوادي المنحدر نحو المحيط..

أما بيت آل مارتان– ليفيسك، فيقوم وحده عند مدخل القرية على حافة الطريق. وهو مسكن صغير من مساكن الصيادين، حوائطه من طين، وسقفه من قش تزينه زهور زرقاء، وأمام البيت حديقة صغيرة، ينمو فيها البصل والكرنب والبقدونس، ويفصلها عن الطريق سياج من النباتات الشوكية.

خرج الزوج إلى البحر ليصيد، وبقيت الزوجة أمام الدار تصلح حلقات شبكة داكنة اللون، منشورة على الحائط كأنها نسيج العنكبوت. وفي مدخل الحديقة فتاة في الرابعة عشرة تجلس على مقعد من قش، مائلة إلى الوراء، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار وهي ترتق ثيابًا.. ثيابًا بالية. وهناك فتاة أخرى تصغرها بعام واحد، تهدهد بين ذراعيها وليدًا صغيرًا، لم ينطق ولم يتحرك بعد. وطفلان آخران في الثانية أو الثالثة جلسا وجها لوجه على الأرض، يفلحان الحديقة بأيديهما الخرقاء. ويتقاذفان حفن التراب في وجهيهما.

وسكت الجميع، إلا الوليد الذي يحاولون تنويمه، وهو يبكي بكاء مستمرًا، في صوت واهن رفيع. وثمة قطة تنام على النافذة، وفي أسفل الحائط زهور منثورة متفتحة، كأنها وسادة تطن عليها جماعات من ذباب.

وفجأة تنادي الفتاة التي تخيط قرب مدخل البيت.

– أمي!

وتجيب الأم:

– ماذا دهاك؟

– ها هو ذا يعود ثانية.

وهما مضطربتان منذ الصباح، لأن رجلًا يحوم حول المنزل، رجل عجوز تبدو عليه سيماء الفقر، كانتا قد لمحتاه عندما صحبنا الأب إلى قاربه. كان يجلس على حافة المصرف في مواجهة الباب، فلما رجعنا من الشاطئ، ألفيتاه في مكانه، يتطلع إلى البيت.

كان يبدو مريضًا بائسًا. لم يكن قد تحرك من مكانه خلال ساعة أو يزيد، فلما رآهما تنظران إليه نظرات الريبة، نهض وانصرف يجر ساقيه.

لكنهما لم تلبثا أن رأتاه يعود ثانية في خطاه الوئيدة المتعبة، ثم يجلس في مكان أبعد قليلًا عن المكان الأول. وبدا كأنه يترصد حركاتهما.

وملأ الخوف قلب الأم وبنتيها الصغيرتين، وكانت الأم منزعجة بوجه خاص، لأنها ذات طبيعة هيابة، ولأن رجلها ليفيسك لن يعود من البحر إلا مع الليل.

كان زوجها يدعى ليفيسك، أما هي، فقد أسموها مارتان، ولذلك أطلق الناس على هذه العائلة اسم آل "مارتان– ليفيسك" وإليكم السبب. فقد تزوجت المرأة أول الأمر من نوتى يدعى مارتان، كان يذهب كل صيف إلى "الأرض الجديدة" يصطاد سمك البقل.

وقضت سنتين في عصمته، ولدت له فيهما بنتا، وكانت حاملًا في الشهر السادس عندما اختفت "الأختان" وهي السفينة ذات الساريات الثلاث، التي ركبها زوجها من دييب.ولم يأت أبدًا عن السفينة أي خبر. ولم يعد أحد من البحارة الذين كانوا عليها، واعتبرت منذ ذلك الحين مفقودة بمن فيها وما فيها.

وانتظرت امرأة مارتان رجلها عشر سنوات، ولقيت في تنشئة بنتيها من أمرها عسرًا، وكانت امرأة طيبة ذات عزيمة، فتقدم للزواج منها صياد من أهل بلدتها هو ليفيسك. وكان أرمل وأبا لولد. وتزوجته وأنجبت له ولدين في ثلاث سنوات.

كانوا يعيشون في ضنك وكفاح. وكان الخبز مرتفع الثمن واللحم مجهولًا أو يكاد لديهم. وكانوا يستدينون أحيانًا من الخباز، أثناء أشهر العواصف في الشتاء، ومع ذلك فقد كان الأطفال يتمتعون بصحة جيدة، وكان الناس يقولون: –أن آل مارتان ليفيسك من خيرة الناس، فالمرأة مارتان جلدة على العمل، وليفيسك لا يضارعه أحد في الصيد.

واستطردت الفتاة التي تجلس مستندة إلى الجدار تقول:

– يبدو كأنه يعرفنا، لعله فقير من بلدة ايبرفيل أو أوزيبوسك لا، لا، أن الأم لم تنخدع. إنه ليس من البلدة، بالتأكيد.

ولما كان ثابتًا في مكانه كالوتد، وهو يعلق نظراته في عناد على مسكن آل مارتان– ليفيسك، فقد ثارت المرأة، واستمدت الحمية من خوفها، فأمسكت مجرفة وخرجت أمام الباب، وصاحت في الرجل الشريد:

– ماذا تعمل هنا؟

فأجاب في صوت أبح:

– أستنشق الهواء.. هل أسأت إليك؟

واستمرت تقول:

– ولماذا تجلس هكذا متجسسًا أمام بيتي؟

وأجاب الرجل:

– أنا لا أوذي أحدًا.. ألا يباح لي أن أجلس في الطريق؟

ولما لم تجد المرأة ما تجيب به، آبت إلى بيتها.

ومضى النهار بطيئًا، واختفى الرجل حول الظهر، ولكنه عاد ثانية حوالي الساعة الخامسة. ولم يشاهده أحد بعد ذلك في المساء.

وعاد ليفيسك مع الليل، وأخبروه بالأمر، فقال:

– إنه فضولي أو رجل سوء.

ونام لا يشغل باله هم، بينما كانت امرأته تفكر في أمر هذا الشريد الذي يتطلع إليها بنظرات جد غريبة.

ولما طلع النهار، كانت الريح عاتية، فرأى الرجل أنه لن يستطيع أن يركب البحر، وأعان زوجته في إصلاح الشباك.

وحول الساعة التاسعة عادت البنت الكبرى، من الزوج الأول مارتان، وكانت قد خرجت لتشتري خبزًا، عادت جارية بادية الاضطراب، وصاحت:

– أماه! ها هو ذا ثانية!

وانفعلت الأم، وقالت لزوجها، وقد شحب لونها:

– اذهب وحدثه يا ليفيسك حتى لا يراقبنا هكذا، أن هذا يسبب لي خوفًا شديدًا.

وكان ليفيسك بحارًا طويل القامة، أسمر البشرة، كث اللحية أحمرها، أزرق العينين، زرقة يخالطها بعض السواد، غليظ العنق، يتدثر دائمًا بالصوف خوفًا من الهواء والمطر في عرض البحر، فخرج في هدوء واقترب من الرجل المتجول، وأخذا يتحدثان.

وكانت الأم وبنتاها تنظرن إليهما من بعيد، قلقات مرتعدات.وفجأة نهض الرجل المجهول، وأقبل مع ليفيسك نحو البيت. وتملكت المرأة دهشة شديدة، وجعلت تتراجع إلى الوراء فقال لها زوجها:

– أعطه قليلًا من الخبز وكوبا من شراب السيدر، فهو لم يطعم شيئًا منذ أول أمس.

ودخل الرجلان إلى الدار تتبعهما المرأة والبنتان. وجلس الرجل المتجول وطفق يأكل وقد خفض رأسه تحت النظرات المصوبة إليه.

وراحت المرأة تمعن فيه النظر، ووقفت البنتان الكبيرتان، ابنتا مارتان، وقد أسندتا الظهر إلى الباب– وكانت إحداهما تحمل آخر الخلف– وجعلتا تنظران إليه نظرات شرهة، وكف الطفلان الصغيران عن اللعب بالقدر الأسود، وجلسا على رماد الموقد، وكأنهما يريدان أن يتأملا الرجل الغريب هما أيضًا.

وجلس ليفيسك على مقعد وسأله:

– إذن، أنت قادم من بعيد؟

– أنا قادم من مدينة "سيت".

– ماشيًا هكذا.

– نعم ماشيًا، إذا كان المرء معدمًا، فلابد له من ذلك.

– وإلى أين كنت ذاهبًا إذن؟

– كنت آتيا إلى هنا!

– أتعرف أحدًا هنا؟

– ربما!

وصمت الاثنان. وكان الرجل يأكل على مهل رغم جوعه الشديد، وكان يحتسي جرعة من السيدر بعد كل لقمة خبز، وكان وجهه منهكًا مغضنًا، ناحلًا، وكان يبدو عليه أنه قاسي كثيرًا.

وسأله ليفيسك فجأة.

– ما اسمك؟

وأجاب دون أن يرفع وجهه.

– اسمي مارتان.

وانتابت الأم رعشة غريبة هزت كيانها، وخطت خطوة تريد أن ترى هذا الشريد عن كثب. وبقيت أمامه وقد تدلت ذراعاها، وفغرت فاها. وران الصمت على الجميع. وأخيرًا استأنف ليفيسك الحديث:

– هل أنت من هنا؟ من هذه البلدة؟

فأجاب:

– نعم! من هنا.. من هذه البلدة.

ثم رفع رأسه فتلاقت نظراته بنظرات المرأة وبقيت ثابتة لا تريم، وكأن نظراتهما قد علقت معا..ثم صاحت فجأة بصوت متغير مرتجف:

– أهو أنت، هل أنت رجلي؟

فأجاب في بطء:

– نعم؛ هو أنا.

ولم يتحرك واستمر يمضغ طعامه.

أما ليفيسك فكانت دهشته أقوى من تأثره، فتمتم قائلًا:

– هل أنت مارتان؟

فأجاب الرجل في بساطة:

– نعم، هو أنا.

وسأل ليفيسك:

– ومن أين أنت قادم؟

وطفق الرجل يقص قصته:

– من شاطئ إفريقيا. غرفت مركبنا على إثر اصطدامها بصخرة في البحر. ونجا منا ثلاثة، بيكار وفاتيفيل وأنا. ثم أسرنا قوم متوحشون،

واحتجزونا اثنتي عشرة سنة، ومات بيكار وفاتيفيل ثم أنقذني رحالة إنجليزي، أثناء مروره هناك، فأخذني وأعادني إلى مدينة سيت، وها أنا ذا حي أرزق.

وأخذت المرأة تبكي وقد أخفت وجهها بين طفيها.

وقال ليفيسك:

– وماذا تعمل الآن؟

فسأل مارتان: –"هل أنت زوجها؟"

وأجاب ليفيسك: –"نعم".

ونظر كل منهما للآخر وقد انعقد لسانهما.

وحينئذ جعل مارتان يتأمل الأطفال وقد التفوا حوله وأشار إلى الفتاتين وقال:

– أهاتان بنتاي؟

فقال ليفيسك:

– نعم هما بنتاك.

لم ينهض ولم يقبلهما، لكنه أبدى ملاحظة فقط:

– بالله.. ما أكبرهما!

ولم يكن مارتان الحائر يعرف مخرجًا، وأخيرًا استقر رأيه فقال:

– أنا.. سأتصرف وفق رغبتك، لا أريد بك شرًا. لي بنتان، ولك ثلاثة أولاد. لكل منا أولاده. أما الأم. فهل تكون لك.. أم تكون لي؟ إني أوافق

على كل ما يرضيك. أما البيت.. فهو لي، إنه بيت أبي وقد ولدت فيه، وهناك أوراق تثبت ذلك عند موثق العقود.

وكانت المرأة لا تزال تنتحب مرسلة شهقات ضعيفة تخفيها في ميدعتها الزرقاء، واقتربت البنتان الكبيرتان وجعلتا تنظران إلى أبيهما في اضطراب.

وكان قد انتهى من الأكل فقال بدوره:

– ما الذي سنعمله؟

وخطر لليفيسك خاطر ما:

– فلنذهب إلى قسيس القرية، وهو الذي يقرر.

ونهض مارتان وبينما كان يتقدم من زوجته، ألقت بنفسها على صدره، وهي تجهش بالبكاء:

– رجلي! هذا أنت! مارتان، رجلي المسكين مارتان، ها أنت ذا!

واحتوته بذراعيها، وقد غمرها طيف من الماضي، وهزة عنيفة من الذكريات أعادت إليها سنيها العشرين وقبلات شبابها.

وأخذ مارتان، وقد بلغ به التأثر هو أيضًا، يقبلها على قلنسوتها، وأخذ الصغيران القابعان قرب الموقد، ينشجان معا، وقد سمعا أمهما تبكي، وصرخ الوليد الأخير بين ذراعي البنت الثانية من بنات مارتان، وصرخ صرخة حادة أشبه بصوت زمارة شاذة النبرات.

وكان ليفسيك واقفًا ينتظر فقال:

– هيا يجب أن نحسم هذا الأمر.

وترك مارتان "زوجته"، وإذ كان ينظر إلى ابنتيه قالت الأم:

– هيا، قبلا أباكما.

واقتربتا منه في نفس اللحظة، بلا عاطفة، دهشن، في شيء من الوجل، فطبع على خدي كل منهما، قبلة فلاح غليظ. ولما رأى الوليد هذا الغريب يدنو منه، أرسل صرخات حادة حتى كاد أن يصاب بتشنج عصبي.

ثم خرج الرجلان معا.فلما مرا أمام مقهى "التجارة" سأل ليفيسك رفيقه:

– ما رأيك لو دخلنا وشربنا كأسا؟

وقال مارتان:

– أنا موافق.

فدخلا وجلسا في غرفة المقهى وكانت خالية من الناس.

– إيه يا شيكو! هات قدحين من أجود صنف. هذا مارتان قد عاد.. مارتان زوج امرأتي، إنك تعرفه، مارتان بحار سفينة "الأختين" التي فقدت.

أما الساقي، وكان بطنا، دموي الوجه، مكتنزًا شحمًا، فقد أقبل يحمل في إحدى يديه ثلاثة أكواب، وقنينة في الثانية وسأل في هدوء:

– إذن فها أنت ذا يا مارتان!

وأجاب مارتان:

– ها أنا ذا!

صفقة!

لم تكن ثمة نسمة من الهواء تمر خلال ذلك الضباب الكثيف الجاثم على ماء النهر، كسحابة من قطن كامد. وحتى الضفتان لم تكن معالمهما تبين، فقد اختفتا تحت أبخرة عجيبة تراكمت كالجبال. ولما كان النهار وشيك الطلوع، فقد أخذ التل يبدو شيئًا فشيئًا. وعند سفحه، وسط أضواء الفجر الباهتة، أخذت بقع بيضاء تظهر شيئًا فشيئًا، إنها منازل الأهالي المطلية بالجير، وراحت الطيور تصيح في أعشاشها.

وعلى الضفة الأخرى من النهر، المدفونة تحت الضباب، وأمام "لافريت" بالضبط، كانت هناك جلبة تعكر من هدوء ذلك الجو الراكد الذي لا نسمة فيه، وكانت تسمع تارة كلطم الموج لمركب تسير في حذر، وتارة أخرى كضربة صماء، كصوت مجداف يرتطم بخشب السفن، وتارة ثالثة كصوت شيء رخو يسقط في الماء.. ثم.. لا شيء.

وكانت تجيء أحيانًا كلمات خافتة، لا يعرف مصدرها، ربما أتت من بعيد جدًا، وربما جاءت من قريب جدًا، ضلت سبيلها وسط هذا الضباب الكثيف. وإنك لا تدري أهي منبعثة من فوق النهر أو من فوق الأرض، وكانت تحلق مثل تلك الطيور البرية التي قضت ليلها بين الأعشاب ثم انطلقت مع خيوط الفجر الأولى، مواصلة هروبها، فبدت لحظة تجتاز الضباب خفاقة الجناح، وهي ترسل صيحة عذبة وجلة، لتوقظ أخوتها على طول الضفاف.

وفجأة، قرب الشاطئ، أمام القرية، ظهر على الماء شبح لا يكاد يبدو

أول الأمر، ثم نما واتضحت معالمه، وبرزت من الحجاب المعتم المنشور على النهر، مركب مسطحة عليها رجلان، ثم رست على الشاطئ المعشب.

ونهض الرجل الذي كان يجدف، وتناول من قاع المركب دلوا ممتلئًا بالسمك، ثم ألقى على كتفه بالشبكة وهي لا تزال تقطر ماء. أما رفيقه الذي لم يكن تحرك، فقد قال:

– هات بندقيتك.. سنصيد أرنبًا على الشاطئ، أتوافق يا مايوش؟

وأجاب الآخر: "موافق.. انتظر فسألحق بك".

وابتعد ليضع صيدهما في مكان أمين.

أما الرجل الذي بقي وحده في المركب، فقد حشا غليونه على مهل وأشعله.

كان يدعى لابويز وشهرته "شيكو"، وهو وزميله "مايوشون" أو "مايوش"– كما اعتاد الناس أن يسموه – شريكان في حرفة مريبة وهي حرفة "الخطف".

وكانا بحارين من الدرك الأسفل لا يبحران بانتظام إلا في أشهر المجاعة. أما بقية الوقت فكانا "يخطفان" وهما يتجولان على النهر ليل نهار، يترصدان كل فريسة حية أو ميتة. كانا أشبه شيء بمنظفي المجاري، فهما حينا يتربصان بتيوس غابة سان جرمان، وحينا آخر يبحثان عن الغرقى، ويسطوان على ما في جيوبهم. وهما أيضًا يجمعان الخرق الطافية، والزجاجات الفارغة، التي تسير مع التيار، وقد اتجهت فتحاتها إلى أعلى، تهتز اهتزاز السكارى، وقطع الخشب التي تجري شاردة على الماء.

وهما يخرجان أحيانًا عند الظهر، ويسيران على الأقدام لا يلويان على

شيء، يتغذيان في أحد المطاعم على الشاطئ، ثم يسيران ثانية جنبًا إلى جنب، ويغيبان يومًا أو يومين، ثم يراهما الناس ذات صباح يتجولان في ذلك الشيء القذر الذي اتخذاه مركبًا.

وفي جوانفيل أو نوجان، كان ثمة نوتيه مغمومون، يبحثون عن قاربهم الذي اختفى في المساء، بينما كان أحد الأعيان، على مسافة عشرين أو ثلاثين ميلًا من ذلك المكان، يفرك يديه إعجابًا بالقارب المستعمل الذي اشتراه في الليلة السابقة، بخمسين فرنكًا، من رجلين باعاه له هكذا، وهما يمران به وقد توسما فيه خيرًا.

وظهر مايوشون ثانية ومعه بندقيته ملفوفة في خرقة، إنه في الأربعين أو الخمسين من عمره، مديد القامة، نحيف، ذو نظرة حادة، نظرة من تقلقهم الهموم، أو نظرة الحيوانات التي طال طرادها. وكان قميصه المفتوح يكشف عن صدر أشعر تكسوه جزة رمادية اللون. ولم تكن له لحية، أما شواربه فقصيرة، وتحت شفته السفلى قليل من الشعرات الجافة، وكان أجرد السالفتين.

وعندما كان يخلع القرص النتن الذي كان يستعمله كقبعة، كان رأسه يبدو وقد غطاه زغب خفيف كالدخان.. شبح شعر، كأنه جسد دجاجة مندوفة أعدت للشي.

وكان شيكو على نقيضه، أحمر الوجه كثير البثور، بدينا قصير القامة، مشعرًا، وكأنه قطعة من "البفتيك" النيئ، وكانت عينه اليسرى مغمضة دائمًا وكأنه يسدد المرمى نحو شخص أو شيء ما. فإذا سخر منه أحد لهذه العادة وقال له: "افتح عينيك يا لابويز!" أجابه في لهجة هادئة: "لا تجزعي يا أختاه!

فإنني أفتحها في الوقت المناسب". وكان من عادته، أن ينادي الجميع يا أختاه! حتى زميله في السطو.

وتناول المجدافين بدوره، وأوغلت المركب من جديد في الضباب القابع بلا حراك فوق النهر. ذلك الضباب الذي خذ لونًا أبيض كالحليب في سماء تضيئها ومضات وردية.

وسأل لابويز:

– أي نوع من الرصاص أخذت يا مايوش؟

فأجاب مايوشون:

– من النوع الصغير.. من الجديد.. وهو ما يصلح للأرانب.

وكانا يقتربان من الضفة الأخرى في بطء وفي هدوء شديدين، حتى أنهما لم يحدثا أي صوت يكشف عنهما. وكانت هذه الضفة جزءًا من غابة سان جرمان، وهي حد يقف عنده صيد الأرانب، وهي مليئة بالجحور المختفية تحت جذور الأشجار. وعند الفجر تأخذ الأرانب في القفز، وتروح وتجيء وتدخل إليها وتخرج منها.

وكان مايوشون وقد ركع في المقدمة، يتربص والبندقية مخفية على أرضية المركب. وفجأة، أمسك بها وسدد المرمى، وتردد صدى الطلقة طويلًا في ربوع الريف الهادئ.

وبلغ لابويز الضفة بضربتين من مجدافه، وقفز رفيقه إلى الأرض والتقط أرنبًا رماديًا صغيرًا كان لا يزال ينبض بالحياة.

ثم أوغلت المركب من جديد في الضباب، عائدة إلى الضفة الأخرى، لتكون في مأمن من الحراس.

وكان يبدو في تلك اللحظة، أن الرجلين يتنزهان في بطء على الماء. إذ كان السلاح قد اختفى تحت اللوح الخشبي الذي يتخذانه مخبأ، كما اختفى الأرنب في قميص شيكو المنتفخ.

وبعد ربع ساعة، قال لابويز لرفيقه:

– هيا يا أختاه! واحدًا آخر!

وأجابه مايوشون:

– هيا بنا.

وانطلقت المركب من جديد تنحدر بسرعة مع التيار، وكان الضباب الذي يغطي النهر قد بدأ ينقشع، والأشجار على الضفتين قد بدأت تبدو كأنها وراء غلالة رقيقة كما أخذ الضباب يتبدد.

فلما دنا الرجلان من الجزيرة التي تواجه رأسها "هربليه" أبطأ في السير، وعادا إلى التربص، ثم سرعان ما قتل أرنب ثان.

وبعدئذ واصلا السير نازلين حتى منتصف طريق كوفلانس، ثم توقفا، وربطا المركب إلى شجرة، واضطجعا في قاعها، ثم لم يلبثا أن راحا في النوم.

وكان لابويز ينهض بين الحين والحين، ويتجول بعينه المفتوحة حول الأفق، وكان ضباب الصباح قد تلاشي، وبدت شمس الصيف الكبيرة تصعد مشرقة في السماء الزرقاء.

وهناك على الضفة الأخرى من النهر، كان التل المغطى بالكروم يلتف على شكل نصف دائرة. وعلى قمته يقوم بيت واحد وسط باقة من الأشجار.. وكان السكون مخيمًا على كل شيء.

غير أنه كان هناك شيء يتحرك على الطريق المحاذي للنهر، يتحرك ببطء ولا يكاد يتقدم. كانت امرأة تسحب حمارًا. وكانت البهيمة المتصلبة المفاصل، الجامدة، الحرون، تمد إحدى ساقيها، مذعنة لمجهود صاحبتها، بعد أن تعجز عن مقومتها. وكان الحمار يسير مادًا عنقه، وقد تدلت أذناه، كان يسير في بطء شديد لا يدري معه أحد متى سيغيب عن النظر.

وكانت المرأة تسحب الحمار وتلتفت أحيانًا بظهرها المقوس لتضربه بفرع شجرة في يدها، وأبصر بها لابويز، فقال:

– أي مايوش؟

وأجابه مايوش:

– ماذا دهاك؟

– أتريد أن تضحك؟

– ليس هذا وقت الضحك

– هيا بنا، انهضي يا أختاه! سنضحك عما قليل.

وأمسك شيكو بالمجدافين.

وعندما عبرا النهر وأصبحا أمام المرأة والحمار صاح بها:

– أيه.. يا أختاه؟

وكفت المرأة عن سحب حمارها ونظرت إليه، واستطرد لابويز:

– هل أنت ذاهبة إلى سوق القاطرات؟

ولم تجب المرأة بشيء، فاستأنف شيكو:

– أيه! قولي.. هل حصل حمارك على جائزة السباق.. إلى أين تقودينه بهذه السرعة؟

وأخيرًا قالت المرأة:

– إني ذاهبة إلى "ماكار" في "شامبيو" ليذبحه، فلم يعد يساوي شيئًا.

وأجاب لابويز:

– الحق معك.. وكم سيعطيك فيه "ماكار"؟

ومسحت المرأة جبهتها بظهر يدها، وقالت مترددة:

– لا أدرى.. ربما ثلاثة فرنكات.. ربما أربعة.

فصاح شيكو:

– أعطيك فيه خمسة فرنكات.. وها أنت قد أتممت مأموريتك.. وهو مبلغ غير قليل.

وبعد تفكير قصير قالت المرأة:

– اتفقنا.

ونزل الرجلان "الخطافان".وتناول لابويز عنان الحيوان، وسأل مايوش دهشًا:

– ما الذي تريد أن تفعله بهذا الحمار؟

وفتح شيكو عينه الأخرى هذه المرة، ليعبر عن ابتهاجه، وكان وجهه الأحمر قد تجعد من الفرح.

ونقنق يقول:

– لا تخافي يا أختاه، إنني أعرف ما أنوي عمله.

وأعطى المرأة خمسة فرنكات فجلست على حافة الطريق لتشاهد ما سوف يحدث.

وعندئذ ذهب لابويز طربًا، وأحضر البندقية وأعطاها إلى مايوشون.

– كل واحد وطلقته، سنصيد الصيد الكبير يا أختاه! لا تقتربي على هذا النحو، بحق الله، وإلا فإنك ستقتلينه من الطلقة الأولى. يجب أن تدوم متعتنا قليلًا.

وأوقف زميله على بعد أربعين خطوة من الضحية. وأحس الحمار بأنه قد أصبح طليقًا. فأخذ يحاول أن يأكل من أعشاب الشاطئ الطويلة، ولكنه كان من شدة الإعياء بحيث أخذ يضطرب على قوائمه، كأنه مشرف على السقوط.

وصوب إليه مايشون بندقيته في بطء وقال:

– رشة في الأذنين. انتبه يا شيكو.

وأطلق البندقية.وثقب الرصاص الدقيق أذني الحمار الطويلتين، فجعل

يهزهما بقوة، ويحركهما الواحدة بعد الأخرى تارة، ثم الاثنتين معا، تارة أخرى، لكي يتخلص من هذه "الحكة".

وأغرق الرجلان في الضحك، وتقوس ظهراهما، وجعلا يركلان الأرض بأقدامهما. غير أن المرأة تقدمت محنقة نحوهما. كانت لا تريد أن يعذب حمارها هكذا، وعرضت أن تعيد إليهما الفرنكات الخمسة، وكانت ثائرة تزفر.

وهددها لابويز بالضرب، وتظاهر برفع كميه. لقد دفع الثمن، أليس كذلك؟ إذا لا يهم. وتظاهر بإطلاق رصاصة في مئزرها ليثبت لها أن هذا البارود الدقيق لا يؤلم في شيء.

فولت عنهما وهي تهدد بالشرطة، وسمعاها وقتًا طويلًا تصرخ بشتائم تزداد قوة كلما ابتعدت.

وناول مايوشون البندقية لزميله:

– دورك يا شيكو.

فصوبها لابويز وأطلق النار، فأصاب الحمار في فخذيه، لكن الرصاص كان بالغ الدقة، وقذف به من بعيد جدًا، حتى أن الحمار اعتقد دون شك، أنها قرصة ذباب.. فأخذ يهشه بذيله هشًا قويًا، وجعل يضرب به ساقيه وظهره.

وجلس لابويز ليضحك كما يشاء. بينما كان مايوشون يعبئ السلاح من جديد، وقد أخذ منه الفرح بحيث بدا وكأنه يعطس في أنبوبة البارود.

واقترب بضع خطوات، وصوب نحو البقعة التي سدد إليها مرماه، وأطلق رصاصة ثانية. وفي هذه المرة، قفز البهيم قفزة مفاجئة وحاول الرفس، وأدار رأسه،

فقد سأل دم قليل آخر الأمر. كان الحمار قد أصيب إصابة بالغة، واستشعر ألمًا حادًا، وأخذ في الفرار على الساحل، وراح يعدو بطيئًا في عرج واهتزاز.

وأسرع الرجلان يطاردانه.. مايوشون يسير في خطى واسعة، ولابويز يجري في خطى سريعة، جرى الرجل القصير وقد انبهرت أنفاسه.

لكن الحمار، خارت قواه، فوقف عن السير، وجعل ينظر بعين زائغة إلى قاتليه يقبلان نحوه، ثم، مد رأسه فجأة وأخذ ينهق..

وكان لابويز قد أمسك بالبندقية لاهثًا، واقترب هذه المرة كثيرًا، فلم تكن به رغبة في معاودة الجري.

ولما انتهى الحمار من عويله المؤلم، وكأنه استغاثة وصرخة عجز أخيرة، قال الرجل وقد دبر أمرًا "مايوش"، هيا أختاه! تقدمي!

سأعطيه دواء!. وبينما كان الرجل الآخر يفتح بالقوة فم الحيوان، كان شيكو يدخل ماسورة البندقية داخل حلقومه كما لو كان يريد أن يسقيه دواء، ثم قال:

– أيه يا أختاه! انتبهي، سأسكب الشربة!

وضغط على الزناد، وتقهقر الحمار ثلاث خطوات، وسقط على عجزه، وحاول أن ينهض من جديد، ثم سقط في النهاية على جنبه وهو يغمض عينيه، وكان جسمه الهرم الأجرد ينتقض، وقوائمه تهتز وكأنه يريد أن يركض.

وانهمرت موجة الدم من بين أسنانه، ولم يلبث أن كف عن الحركة.. كان قد مات.

ولم يضحط الرجلان، فقد كانت النهاية سريعة جدًا!

وسأل مايوشون:

– وما الذي سنفعل به الآن؟

وأجاب لابويز:

– لا تخافي يا أختاه! فلنضعه على المركب وسنضحك عندما ينزل الليل.

وذهبا لإحضار المركب، وأرقدا جثة الحمار في قاعها، وغطياها بأعشاب خضراء. وتمدد الرجلان فوقها، وعادا إلى النوم.

وقرب الظهر، أخرج لابويز من مخبأ خفي في مركبهما النخرة الموحلة، لترًا من النبيذ ورغيفًا وبعض الزبد والبصل الأخضر وأخذا يأكلان.ولما انتهت الأكلة، رقدا من جديد على الحمار الميت، وعاودا النوم.

واستيقظ لابويز في أول الليل، وهز زميله الذي كان يغط كالأرغن وأمره:

– هلمي يا أختاه! هيا بنا!

وأخذ مايوشون يجدف، وصعدا من جديد نهر السين في بطء شديد، فقد كان أمامهما متسع من الوقت. وكانا يسيران في محاذاة الشاطئ المغطى بزنابق الماء المزهرة والذي ينتشر فيه أريج ذكي، وتتدلى من أشجاره على الماء باقات أزهار بيض. وكانت المركب الثقيلة بلونها الطيني، تنزلق على أوراق نبات اللوتس العريضة المسطحة، فكانت تحني أزهارها الشاحبة المستديرة المشقوقة كالجلاجل، ثم تعود فتنتصب قامتها بعدئذ.

ولما بلغا حائط "الايبيرون" الذي يفصل بين غابة سان جرمان ومتنزه

ميزون- لافيت، أوقف لابويز زميله وعرض عليه مشروعه فاهتز له مايوشون بضحكة مكتومة طويلة.

وألقيا في الماء بالأعشاب المنشورة على الجثة، وأمسكا بالحمار من رجليه وأنزلاه إلى الأرض، وراحا يخفيانه في الأكمة.

وكان الليل مظلمًا تمامًا، عندما دخلا عند الشيخ جول، الطباخ تاجر النبيذ. وما إن أبصر بهما التاجر حتى تقدم وشد على أيديهما، وجلس إلى مائدتهما، ثم تحادثوا في موضوعات مختلفة.

وحول الساعة الحادية عشرة، وبعد أن انصرف آخر العملاء، قال الشيخ جول للابويز وهو يغمز بعينيه:

- والآن.. هل معك شيء؟

وأتى لابويز بحركة من رأسه وقال:

- معي.. وليس معي.. هذا ممكن.

وألح صاحب المطعم:

- الرمادية.. ولا شيء غيرها؟

عندئذ دس شيكو يده في قميصه الصوفي وأظهر أذني أرنب وقال:

- الزوج منه بثلاثة فرنكات..

وعندئذ دار نقاش طويل حول الثمن، واتفقوا على فرنكين وخمسة وستين سنتيما، وسلم الأرنبان.

وكان الشيخ جول يرقب الرجلين الخبيثين وهما ينهضان، فقال لهما:

– معكما شيء آخر، ولكنكما لا تريدان أن تفصحا عنه.

وأجاب لابويز:

– ربما، ولكنه ليس لك، فلست أهلا له..

وتحمس الرجل فألح عليه:

– ماذا؟ أمن النوع الكبير؟ قل ما هو؟ نستطيع أن نتفاهم.

وأبدى لابويز ترددًا، وتظاهر باستشارة مايوشون بعينيه، ثم أجاب في صوت بطيء:

– إليك القصة: كنا نكمن في "الايبيرون" عندما مر شيء ما في أول دغلة على اليسار في آخر الحائط.

أطلق مايوش طلقة فسقط الحيوان. وهربنا بسرعة خوفًا من الحراس، ولا أستطيع أن أقول لك ما هو. لأنني أجهل ذلك. أما عن كونه ضخما فهو ضخم.. لكن ما هو؟ أن أخبرتك فقد غششتك، وأنت تعرفين يا أختاه أننا صرحاء تمامًا في معاملاتنا..

وسأل الرجل:

– ألا تكون عنزة برية؟

وأجاب لابويز:

– قد يكون كذلك.. أو أي شيء آخر! عنزة برية؟ نعم. أظنه أضخم من

ذلك؟ لعله وعل! أوه ولكني لا أقول لك إنه وعل. فأنا أجهل ذلك، لكن ربما!

وكان صاحب المطعم يلح مستفسرًا:

– ربما كان أيلا؟

فمد لابويز يده قائلًا:

– أما هذا فلا، إن كنت تقصد أيلا، فهو ليس بالأيل. أنا لا أغشك، إنه ليس أيلا، وإلا كنت عرفته من قرونه.. لا يمكن أن يكون أيلا.. ليس أيلا.

وسأل الرجل:

– ولماذا لم تأخذاه؟

– تسألين لماذا يا أختاه.. لأننا منذ الآن سنبيع البضاعة في مكانها.. إننا صيادون هل فهمت، ستذهب إلى هنالك حيث تجد الشيء وتستولي عليه ولا خطر هناك.. هكذا..

وقال الطباخ يخالجه الشك:

– ولماذا لم يكن هناك الآن؟

لكن لابويز رفع يده من جديد:

– أما أنه موجود هناك فهو موجود، أعدك بذلك، أقسم لك على ذلك. في أول دغلة على اليسار. أما ما هو.. فأنا أجهل ذلك.. أعرف أنه ليس بأيل. أنا واثق من ذلك. أما عن الباقي، فعليك أن تذهب لترى. إنه بعشرين فرنكا في مكانه.. هل توافق على ذلك؟

وكان الرجل مازال يتردد:

– ألم يكن في استطاعتك أن تحضره لي؟

وأخذ مايوشون الكلمة:

– إذن فلندع المجازفة.. إن كان عنزة برية، فخمسون فرنكًا، وإن كان وعلا فسبعون.. هذه أسعارنا..

واستقر رأي صاحب المطعم:

– ليكن.. عشرون فرنكًا.. اتفقنا

وتقارعت الأيدي.ثم أخرج من صندوقه أربع قطع كبيرة من ذوات الخمسة الفرنكات، دسها الصديقان في جيوبهما.

ونهض لابويز، وأفرغ كوبه وخرج.. وقبل أن يغيب في الظلام التفت إلى الشيخ جول وقال مؤكدًا:

– إنه ليس أيلا.. بالتأكيد، ولكن ما هو؟.. أما إنه هناك، فهو هناك.. وسأعيد لك النقود أن لم تجد شيئًا.

وغاب في الظلام:

وتبعه مايوشون، وهو يكيل له اللكمات في ظهره، معربا عن شدة ابتهاجه.

التعميد

وقف الرجال ينتظرون أمام البيت وقد ارتدوا أجمل ثيابهم، وكانت شمس مايو ترسل ضياءها المصفى على أشجار التفاح المزهرة، المستديرة كباقات ضخمة بيضاء وردية تبعث في الجو عبيرها وتغطي الفناء جميعه بسقيفة من الأزهار الناضرة التي تنثر حولها، بلا انقطاع، أوراقها الدقيقة المتطايرة الدائرة، فتساقط كنديف الثلج فوق العشب الطويل، حيث تلمع زهور "البسنلي" كألسنة اللهيب، وتبدو زهور الخشخاش كنقط من الدم.

وكان على مقربة من المكان بعض الحيوانات المنزلية، وعلى حافة كوم السماد ترقد خنزيرة سمينة، ممتلئة الضروع بينما راحت صغارها تدور وتبعث حولها.

وفجأة دق ناقوس الكنيسة من وراء أشجار القرية، مرسلًا نداءه الواهن البعيد في السماء المبتهجة. وكانت العصافير تمرق كالسهام مخترقة الفضاء الأزرق الذي تحيط به أشجار الزان الطويلة.

وكانت رائحة الحيوانات المنزلية تهب بين الحين، فتختلط بالأنسام العذبة الحلوة المنبعثة من أشجار التفاح.

وتحول أحد الرجال الواقفين أمام الباب، تحول نحو المنزل وصاح:

– هيا! هيا بنا! يا "ملينا" ها هي ذي الأجراس تدق!

ولعله كان في الثلاثين من عمره، كان فلاحًا طويل القامة، لم تقوس ظهره ولم تشوهه الأعمال الشاقة الطويلة في الحقول. وأعلن أبوه العجوز،

وهو شيخ تعقد جسمه كشجرة عتيقة، وانتفخت يداه وتقوست ساقاه:

– النساء لا يكن على استعداد أبدًا.

وأغرق ولدا الشيخ الآخرين في الضحك، والتفت أحدهما إلى أخيه الأكبر الذي نادي أولا، وقال له:

– اذهب وأحضرهن يا بوليت، فلن يحضرن قبل الظهر.

ودخل الشاب إلى داره.كان ثمة سرب من البط يقف قرب الفلاحين فأخذت تتصايح وهي تخفق أجنحتها، ثم توجهت نحو المستنقع في خطاها البطيئة المهتزة.

وعندئذ ظهرت امرأة بدينة على الباب الذي ظل مفتوحًا، وكانت تحمل طفلًا في الشهر الثاني من عمره. وكانت شرائط قلنسوتها العالية البيضاء تتدلى على ظهرها، ثم من فوق شال أحمر فاقع. وكان الطفل، وقد لف في قماط أبيض، يرقد على بطن الخادمة البارزة.

ثم خرجت الأم بدورها وهي امرأة طويلة القامة، بدينة– لا تكاد تبلغ الثامنة عشرة– نضرة مبتسمة، خرجت تتأبط ذراع رجلها. وجاءت بعد ذلك الجدتان العجوزتان الذابلتان، وقد تجلى عليهما تعب العمر الطويل الذي قضياه في الأعمال الشاقة الكادحة. وكانت إحداهما أرملة، فأمسكت بذراع الجد الذي كان أمام الباب، وسارا على رأس الموكب خلف الطفل والقابلة. وتبعهما بقية أفراد الأسرة وكان الأطفال يحملون أكياسًا من الورق ملئت بالملبس.

وكان الناقوس الصغير يدق هناك بلا انقطاع، ينادي ما وسعه الجهد الوليد الصغير الهش.. وصعد صبية على الجسر وظهر خلق كثيرون وراء

الحواجز، ووقفت خادمات المزرعة، وقد وضعن دلاء اللبن على الأرض– لكي يشاهدن موكب التعميد.

وكانت الخادمة تسير فخورة وهي تحمل الطفل، وتتجنب مستنقعات الماء في منخفضات الطريق. وكان الشيوخ يتقدمون في وقار، ويسيرون متعثرين لتقدم سنهم وآلام جسدهم. أما الشبان فقد كانوا يتوقون إلى الرقص، فجعلوا ينظرون إلى الفتيات اللائي أقبلن لمشاهدتهم. وكان الأب والأم يتبعان– بكل جد ووقار– هذا الطفل الذي سيحتل مكانهما في الحياة، فيما بعد، والذي سيضمن لاسمهما البقاء في البلدة، اسم "دانتو" المعروف في ربوع الإقليم.

وخرجوا إلى السهل، واتخذوا طريقهم بين الحقول، ليتجنبوا الطريق الطويلة.

ثم بدت الكنيسة ببرجها المدبب، وكانت ثمة فتحة في البرج فوق السقف الأردوازي تمامًا، وراءها شيء يروح ويجيء خلف النافذة الضيقة. إنه ذلك الناقوس الذي لا يكف عن الدق مناديًا المولود الجديد: أن أقبل للمرة الأولى في بيت الرب الكريم.

وكان هناك كلب يسير في إثرهم، والأطفال يقذفون له بالحلوى فيثب حولهم..

وكان باب الكنيسة مفتوحًا.. أما القسيس– وهو شاب أحمر الشعر قوي البنية– فكان ينتظر أمام المذبح.. وهذا القس هو عم الطفل الوليد. وعمد ابن أخيه باسم "بروسبير– سيزار" حسب الطقوس الدينية، وبكى الطفل، وهو يذوق الملح الرمزي.

ولما انتهى الحفل، انتظرت الأسرة على عتبة الكنيسة حتى يخلع القسيس رداء الصلاة. ثم استأنفوا السير، مسرعين هذه المرة، لأنهم كانوا

يفكرون في العشاء. وسار وراءهم صبية القرية جميعا. وكانوا كلما ألقوا لهم بالحلوى، نشب قتال عنيف فيما بينهم، وشد البعض شعر الآخرين، وكان الكلب يلقي بنفسه وسط الجماعة أيضًا، ليجمع الحلوى فكانوا يجذبونه من ذنبه أو أذنيه أو أرجله، لكنه كان أشد عنادًا من الصبية أنفسهم.

وأحست الخادمة شيئًا من التعب، فقالت للقسيس الذي كان يسير بالقرب منها.

– قل لي بربك يا سيدي القسيس، هل تجد مانعًا في أن تحمل ابن أخيك لحظة ريثما أستريح قليلًا.. إنني أشعر بتشنج في معدتي.

وتناول القسيس الطفل، فبدا ثوبه الأبيض أشبه ببقعة بيضاء فوق المسوح الأسود. وقبله، وقد ضايقه هذا الحمل الخفيف لأنه لم يكن يعرف كيف يمسكه وكيف يحمله، وصاحت إحدى الجدتين من بعيد:

– قال لي يا سيدي القسيس، ألا يحزنك ألا يكون لك قط طفل مثله؟

ولم يجب القسيس بشيء. كان يسير في خطى واسعة، وقد ثبت نظراته في الطفل ذي العينين الزرقاوين، وبه رغبة شديدة أن يقبل وجنتيه المكورتين. ولم يستطع مقاومة رغبته فرفعه إلى فمه وقبله قبلة طويلة.

وصاح الأب:

– أيها القسيس.. إن كنت تريد واحدًا مثله، فما عليك إلا أن تخبرنا.

وأخذوا يمزحون كما يمزح الفلاحون.وعندما جلسوا إلى المائدة، انفرج مرح أهل الريف الثقيل انفجار العاصفة، وكان الابنان الآخران على وشك

الزواج هما أيضا. وحضرت الخطيبتان للعشاء. ولم يكف الضيوف عن التلميح إلى الخلف المنتظر من هاتين الزيجتين.

وانطلقت كلمات بذيئة، فاحشة، تضحك الفتيات اللائي أحمرت وجوههن خجلًا، وتحمل الرجال على القهقهة، وهم يضربون المائدة بقبضات أيديهم. ولم يتعب الأب والابن من إرسال النكات البذيئة. وكانت الأم تبتسم، وأخذت العجائز أيضًا نصيبهن من المرح، ورحن يلقين بنكات ماجنة كذلك.

أما القسيس —وقد ألف مثل هذا المجون الريفي— فقد ظل هادئًا بجوار الخادم، يداعب بإصبعه فم ابن أخيه الصغير ليضحكه. وكان يبدو مندهشًا لرؤية هذا الطفل، وكأنه لم يرى طفلًا من قبل. كان يتأمله في إمعان مفكر ووقار حالم، وحنان انبعث في أعماقه، حنان فريد من نوعه، حنان قوي يشوبه شيء من الحزن، حنان نحو هذا المخلوق الواهن.

لم يكن يسمع شيئًا، ولا يرى شيئًا حوله، كان يتأمل الطفل وهو يحس برغبة شديدة في أن يجلسه ثانية على ركبتيه. فقد كان يحتفظ في نفسه بإحساس عذب، مذ حمله أثناء عودته من الكنيسة. وظل جياش النفس أمام هذا الوليد، كأنه أمام سر لم يفكر فيه من قبل، سر جليل مقدس، سر تلك الروح الجديدة، إنه سر الحياة وهي تبدأ، سر الحب الذي يستيقظ، سر السلالة الباقية على الأيام، سر الإنسانية التي لا تكف عن السير أبدا.

وكانت الخادمة تأكل وقد أحمر وجهها، ولمعت عيناها، وضاقت بهذا الوليد الذي يباعد بينها وبين المائدة.

فقال القسيس:

– ناوليني إياه.. أنا لست جائعًا.

وتناول الطفل. وعندئذ اختفى كل شيء بالقياس إليه، وانمحى الحاضرون، وظل على هذا النحو وقد تركزت عيناه على هذا الوجه المورد المنتفخ. وأخذت حرارة الجسم الصغير تنتقل إليه، رويدا رويدا، من خلال القماط، وكانت تنفذ فيه كمداعبة خفيفة، طاهرة، بريئة، لذيذة دفعت الدموع إلى عينيه.

ثم أشتد صخب الآكلين النهمين وانزعج الطفل من هذه الأصوات، وأنشأ يبكي..

وتردد صوت أحد الحاضرين:

– أيها القسيس، هلا أرضعته؟!

واهتزت أركان القاعة من الضحك. لكن الأم نهضت، وأخذت طفلها وحملته إلى الحجرة المجاورة، وعادت بعد دقائق معلنة أنه ينام هادئا في مهده.

واستمر الطعام. وكان الرجال والنساء يخرجون إلى الفناء بين الحين والحين. ثم يعودون فيجلسون إلى المائدة. وكانت اللحوم والخضروات وشراب السيدر والنبيذ تغيب في الأفواه، فتنفخ البطون، وتلمع العيون، وتحمل العقول على الهذيان.

وكان الليل قد جاء عندما بدأوا يحتسون القهوة. وكان القسيس قد اختفى منذ وقت طويل، دون أن يدهش لغيابه أحد.

ونهضت الأم الشابة آخر الأمر، وذهبت لتطمئن على طفلها لا يزال نائمًا.. وكان الظلام قد اشتد في ذلك الوقت، ودلفت إلى الحجرة وتقدمت مادة

ذراعيها أمامها حتى لا تصطدم في قطع الأثاث. لكن صوتًا غريبًا أوقفها في الحال، فخرجت مذعورة وهي واثقة أنها سمعت شخصًا ما يتحرك في الغرفة، وعادت إلى القاعة ممتقعة اللون، منتفضة الأوصال، وروت القصة.. ونهض الرجال جميعا في جلبة، سكارى مهددين، واندفع الأب يحمل في يده مصباحًا.

كان القس راكعًا بجوار المهد، وهو يجهش بالبكاء وقد أسند جبينه إلى الوسادة التي يستريح عليها رأس الوليد.

الشفيع

ما حلم قط أن يؤت من الحظ ما أصابه! كان جان ماران ابن محضر من محضري الأرياف، وجاء إلى الحي اللاتيني كغيره من الطلاب ليدرس القانون. غير أنه كثيرا ما كان يتردد على المشارب، فتعرف فيها إلى نفر من أولئك الطلبة الثرثارين الذين يقذفون بالأحاديث السياسية وهم يتجرعون أقداح الجعة، فشغف بهم إعجابًا، وتعقبهم ملحا من مقهى إلى مقهى، حتى أنه كان يؤدي عنهم ثمن مشروباتهم كلما أتيح له بعض المال.

ثم عمل محاميًا، وكان من الخاسرين. وذات صباح، عرف من الصحف أن أحد زملائه القدامى في الحي اللاتيني قد عين نائبًا.

وإذا به من جديد كلبه الأمين، والصديق الذي يقوم بالعسير من الأعمال وبكل المأموريات، والذي ينشد كلما احتيج إليه، ولا يشعر المرء بالحرج معه إطلاقا. وحدث أن أصبح النائب وزيرًا في إحدى المغامرات البرلمانية، وبعد ستة أشهر كان جان ماران مستشارًا بمجلس الدولة.

فانتابته أول الأمر نوبة من الكبرياء كادت تفقده صوابه، وطفق يجوب الطرقات ليستمتع باستعراض نفسه أمام الناس، كأنهم سيتعرفون منصبه إذا شاهدوه. وكان يجد دائمًا الوسيلة ليقول للتجار الذين يدخل متاجرهم، ولبائعي الصحف، بل ولسائقي العربات لأتفه المناسبات:

– وأنا بصفتي مستشارًا في مجلس الدولة..

ثم استشعر حاجة ملحة إلى أن يشمل الناس برعايته، ويحوطهم بعنايته، بوازع من كرامة، وبدافع من سمو مهنته، وبإحساس بواجبه كرجل كريم صاحب سلطان. فكان يعرض مساعدته على الناس جميعا، في كل مناسبة، وفي أريحية لا ينضب لها معين.

وكلما التقى في الطريق بشخص يعرفه، تقدم نحوه طلق المحيا، وأمسك بيديه، وسأله عن صحته، ثم أعلن إليه دون أن ينتظر منه سؤالًا: — أنت تعرف أنني مستشار في مجلس الدولة، وأنني مستعد لخدمتك. وإذا كنت أستطيع أن أفيدك في شيء، فأستعن بي ولا عليك من بأس، فمن يشغل مثل منصبي له اليد الطولي..

وكان لذلك يدخل أحد المقاهي مع صديقه الذي التقى به، ليطلب قلما وحبرا وورقة من ورق الخطابات ويقول: "ورقة واحدة، يا جرسون، ليكتب عليها خطاب توصية!"

وكان يكتب كل يوم عشرا وعشرين وخمسين خطابًا من خطابات التوصية، ويكتب هذه الخطابات في المقهى الأمريكي وعند بينيو وعند نورتوني وفي الميزون دوريه وفي النابوليتان، وفي كل مكان. وكان يكتب لموظفي الجمهورية جميعا، ومن القضاة حتى الوزراء. وكان سعيدًا بذلك أي سعادة.

وذات صباح خرج من منزله ليذهب إلى مجلس الدولة. فأمطرت السماء، وخطر له أن يركب عربة، لكنه لم يركب، وسار على قدميه في الطرقات.واشتد سقوط المطر، وراحت المياه تغرق الأرصفة، وتغمر قارعة الطريق. واضطر السيد ماران أن يلتمس ملجأ تحت أحد الأبواب.

وكان هناك قسيس عجوز، قسيس عجوز ذو شعر أبيض. وكان السيد ماران لا يحب رجال الدين قبل أن يصبح مستشار للدولة. لكنه أصبح يعاملهم باحترام منذ أن طلب أحد الكرادلة مشورته بصفة مهذبة، بخصوص مشكلة عويصة. وانهمر المطر غزيرًا فاضطر الرجلان إلى الذهاب إلى حجرة البواب ليتجنبا تلطيخ ملابسهما بالطين. وكان السيد ماران لا يفتأ يحس بأكلان لسانه ليظهر شأنه فقال:

– إنه لجو رديء للغاية يا سيدي القس.

وانحنى القسيس العجوز وقال:

– نعم يا سيدي، إنه لأمر ممقوت وخاصة عندما يأتي المرء إلى باريس لبضعة أيام.

– آه! فأنت من الأرياف؟

– نعم يا سيدي فما جئت إلا عابرًا!

– حقا، إنه لأمر ممقوت يا سيدي أن يسقط المطر في الأيام القلائل التي يقضيها الإنسان في العاصمة. أما نحن، موظفي الدولة، الذين يقيمون فيها طيلة العام، فلا نفكر في ذلك إلا قليلا.

ولم يجب القس بشيء. كان ينظر إلى الشارع وقد بدأت شدة المطر تقل. وفجأة حزم أمره، وشمر مسوحه كما تشمر النسوة أثوابهن ليجتزن مجاري المياه.

ولما رأى مسيو ماران القسيس منصرفًا صاح به:

– ستبتل ثيابك يا سيدي القسيس، انتظر بضع لحظات، فسوف ينقطع المطر.

وتوقف الرجل الطيب عن السير حائرًا، ثم استطرد يقول:

– ذلك لأني في عجلة من أمري، فأنا مرتبط بموعد هام.

وساءت حال مسيو ماران.

– ولكن المطر سيغمرك بالتأكيد. هل لي أن أسألك إلى أي حي أنت ذاهب؟

وبدا التردد على القسيس ثم قال:

– أنا ذاهب جهة بور رويال.

– في هذه الحالة، إذا سمحت يا سيدي القسيس سأفسح لك مجالا تحت مظلتي. إنني ذاهب إلى مجلس الدولة، فأنا مستشار بمجلس الدولة.

ورفع القسيس العجوز أنفه ونظر إلى جاره ثم قال:

– أشكرك كثيرًا يا سيدي، وأقبل دعوتك بسرور.

وعندئذ أخذ السيد ماران بذراعه وطفق يرشده ويرقبه وينصحه:

– احترس من هذا المجرى يا سيدي القسيس، واحذر عجلات العربات بوجه خاص، فهي تلطخك أحيانًا من قدميك إلى رأسك. انتبه إلى مظلات الناس الذين يمرون بك. فليس ثمة ما هو أشد خطرًا على العينين من أطراف أسلاكها. والنساء بخاصة حمقاوات، فهن لا تلتفتن إلى شيء وهن يغرزن دائما أطراف مظلاتهن في وسط الوجه، ولا يكلفن أنفسهن عناء من أجل إنسان، وكأن المدينة ملك لهن. إذ يبسطن سلطانهن على الطوار والطريق جميعا، ورأيي أن تربيتهن قد أهملت إهمالًا كبيرًا..

ثم أخذ مسيو ماران في الضحك.

وكان القسيس لا يجيب. كان يسير محدب الظهر قليلًا، ويتخير بعناية مواطئ أقدامه حتى لا يلطخ بالوحل حذاءه أو ثوبه.

واستطرد مسيو ماران يقول:

– لقد حضرت إلى باريس لترفه عن نفسك قليلًا، من غير شك.

وأجاب الرجل:

– كلا؛ فعندي عمل.

– آه! أهو عمل مهم؟ هل أتجرأ وأسألك ما هو؟ إذا كنت أستطيع أن أخدمك، فأنا أضع نفسي تحت تصرفك.

وتحير القسيس ثم غمغم يقول:

– أوه! إنها مسألة شخصية، خلاف بسيط بيني وبين مطراني. وهذا لا يعنيك في شيء.. إنها مسألة نظام داخلي.. موضوع.. موضوع كنسي.

فبادره السيد ماران قائلًا:

– ولكن بالتأكيد.. إن مجلس الدولة هو الذي يقضي في هذه الأمور، وفي هذه الحالة، استعن بي.

– نعم سيدي؛ وأنا ذاهب إلى مجلس الدولة أيضًا. إنك طيب جدًا.. سأقابل مسيو ليريبير، ومسيو سافون، وربما أقابل أيضًا مسيو بتي با.

وتوقف مسيو ماران عن السير.

– ولكنهم أصدقائي ياسيدي القسيس، وأعز أصدقائي، وأحسن زملائي. إنهم قوم في غاية الظرف. سأوصيهم ثلاثتهم بك توصية حارة. اعتمد علي.

وشكره القسيس وأخذ يعتذر ويبدي له عرفانه بالجميل.

وكان المسيو ماران سعيدًا جدًا.

– آه تستطيع أن تعد نفسك سعيد الحظ يا سيدي القسيس. سوف ترى.. سوف ترى أن مسألتك ستسير على خير وجه، بفضلي أنا.

ووصلا إلى مجلس الدولة، وصعد المسيو ماران بالقسيس إلى مكتبه، وقدم له مقعدًا، وأجلسه قرب المدفأة، ثم جلس هو نفسه أمام المكتب وأخذ يكتب:

"زميلي العزيز، أسمح لي بأن أوصيك توصية حارة برجل دين وقور، من أفضل الرجال وأجدرهم بالثناء وهو السيد القس..."

وتوقف عن الكتابة وسأل:

– ما اسمك من فضلك؟

– القس سانتير.

وواصل المسيو ماران الكتابة:

"السيد القس سانتير الذي يحتاج إلى معونتك في موضوع بسيط سيحدثك عنه.

"وأنا سعيد لهذه المناسبة التي تتيح لي أيها الزميل العزيز.."

وختم خطابه بالتحيات المألوفة.

ولما انتهى من كتابة الخطابات الثلاثة دفع بها إلى الرجل الذي شمله برعايته، فانصرف بعد أن أكد له عرفانه بالجميل.

وانتهى المسيو ماران من عمله. وعاد إلى منزله، وقضى يومه في هدوء، ونام في سلام، واستيقظ جذلان راضيًا، ثم بعث في طلب الجرائد.

وكانت الجريدة الأولى التي فتحها جريدة راديكالية.. قرأ فيها ما يلي:

"رجال الكهنوت وموظفونا!"

"لن ننتهي من تسجيل مساوئ رجال الكهنوت قط، فثمة قسيس يدعى سانتير، ثبت عليه التآمر ضد الحكومة الحالية، واتهم بأفعال رذيلة لا نستطيع أن نشير إليها، ويشك أنه يسوعي سابق انقلب قسيسًا عاديًا، عزله مطرانه لأسباب لا يمكن التصريح بها كما يؤكدون، فاستدعي إلى باريس ليقدم تفسيرات عن مسلكه. هذا الرجل قد وجد مدافعًا متحمسًا في شخص المدعو ماران مستشار الدولة، الذي لم يتهيب أن يمنح هذا الشرير المتشح بالمسوح، خطابات توصية ملحة لجميع زملائه من الموظفين الجمهوريين.

"وإنا لنوجه التفات الوزير إلى المسلك الذي سلكه هذا المستشار بمجلس الدولة!"

ونهض مسيو ماران دفعة واحدة، وارتدي ملابسه، وأسرع إلى زميله بتي با، الذي قال له:

– آه! أمجنون أنت إذ توصيني بهذا المتآمر العجوز!

فتمتم مسيو ماران متلعثمًا:

– لكن.. لا.. ألا ترى.. لقد خدعت، كان يبدو رجلا طيبا. لقد لعب بي.. لقد لعب بي بشكل مزر. أرجوك.. دعهم يحكمون عليه بقسوة.. بكل قسوة.. سأكتب.. قل لي.. لمن يجب أن أكتب لأجعلهم يدينونه. سأذهب وأقابل النائب العام، ومطران باريس، نعم مطران باريس، بل رئيس المطارنة!

وجلس فجأة إلى مكتب السيد بتي با، وكتب:

"سيدي، أتشرف بأن أحيط عظمتكم علما بأنني ضحية دسائس وأكاذيب قسيس يدعى سانتير، الذي استغل حسن نيتي! فقد غرر بي القسيس بتصريحاته، فحملني على....

وبعد أن وقع خطابه ووضعه في المظروف وختمه، التفت إلى زميله قائلًا:

– أرأيت يا صديقي العزيز، ليكن لك من ذلك عبرة، لا توص بأحد قط!

عمي جول

سألنا عجوز مسكين ذو لحية بيضاء إحسانًا. ونفحه صديقي جوزيف دافرانش خمسة فرنكات فدهشت.. فقال لي:

– لقد ذكرني هذا البائس بقصة سأرويها لك لا تفتأ ذكراها تلاحقني، وإليك القصة..

إن أسرتي وأصلها من الهافر، لم تكن ذات يسار. كنا ندبر أمور عيشنا فحسب. كان أبي يعمل موظفًا واعتاد أن يعود من المكتب متأخرًا وكان مرتبه ضئيلًا، وكانت لي أختان.

وما أكثر ما قاست أمي لما كنا فيه من ضيق، وكثيرًا ما وجهت لزوجها ألفاظًا خشنة ولومًا خبيثًا مقنعًا، وكان الرجل المسكين يأتي عند ذاك بحركة تحزنني، فيمر براحة يده على جبهته، وكأنه يمسح عرقًا، عرقًا لا وجود له، ولا يرد عليها بشيء. وكنت أحس ألمه العاجز، كنا نقتصد في كل شيء، فلا نقبل قط دعوة للعشاء حتى لا نضطر إلى ردها، ونشتري المؤن بأسعار منخفضة، من بقايا الحوانيت، وكانت أختاي تصنعان ثيابهما بأيديهما. وكانت تنشب بينهما مناقشات طويلة حول ثم شريط، يساوي المتر منه خمسة عشر سنتيما، وكان طعامنا المعتاد يتكون من حساء دسم ولحم بقر يطبخ بكل أنواع الصلصات، وهو فيما يبدو صحي ومقو، ولكني كنت أوثر أي شيء آخر.

وكنت أتلقى تقريعًا مؤلمًا إذا ضاعت أزراري أو مزقت سراويلي.

غير أننا كنا نخرج في أيام الآحاد، في أبهة حلة لنا، لنقوم بجولتنا على رصيف البحر، واعتاد أبي أن يرتدي حلته الردنجوت وقبعة عالية. ويلبس قفازين، ويتأبط ذراع أمي، وقد تزينت كسفينة في يوم عيد. وكانت أختاي – وهما أول من يستعد للنزهة– تنتظران إشارة البدء بالرحيل ولكن، في اللحظة الأخيرة، كنا نكتشف دائما بقعة نسيت على درنجوت أبي ولا بد من الإسراع في تنظيفها بخرقة مبللة بالبنزين.

وكان أبي يبقى محتفظًا بقبعته الكبيرة على رأسه، ويقف بقميصه إلى أن تنتهي العملية، بينما كانت أمي تسرع في عملها وقد ثبتت منظارها على عينيها الكليلتين، وخلعت قفازيها حتى لا تتلفهما.

وكنا نسير في الطريق باحتفال، تمشي أختاي في المقدمة، وقد تأبطت كل منهما ذراع الأخرى، كانتا في سن الزواج، لذلك كنا نستعرضهما، في المدينة، وكنت أسير إلى يسار والدتي ويلزم أبي يمينها. وإنني لأذكر مظهر والدي البائسين، ومظهرهما الحافل في نزهات الأحد، وصلابة ملامحهما وصرامة مشيتهما، وهما يتقدمان في خطى وئيدة، وقامة معتدلة، وساق متوترة، وكأن أمرا خطيرا يتوقف على مظهرهما.وكان أبي يردد نفس الكلمات، وهو يرى السفن تدخل الميناء، وقد عادت من بلاد مجهولة بعيدة.

– آه! لو كان جول فيها.. فيا لها من مفاجأة!

كان عمي جول، أمل الأسرة الوحيد، بعد أن كان مصدر رعبها. كنت أسمع الحديث عنه منذ طفولتي، وكان يخيل إلى أنني سأتعرف عليه من النظرة الأولى، فقد أصبحت لدي فكرة واضحة عنه، وكنت ألم بتفاصيل حياته كلها،

حتى يوم رحيله إلى أمريكا، على الرغم من أنهم كانوا لا يتحدثون عن هذه الفترة من حياته، إلا بصوت خفيض.

وكان سلوكه معيبا فيما يبدو. أعني أنه أتى على بعض المال، وهذه هي كبيرة الكبائر عند الأسر الفقيرة، أما الأغنياء، فيقولون عمن يلهو أنه يرتكب حماقات ويطلقون عليه مبتسمين لفظ "رجل شقي". أما عند المحتاجين، فالفتى الذي يسرف في إنفاق المال، شخص مفسود، صعلوك، فاجر!وهذه التفرقة عادلة، مع إن العمل واحد في الحالتين، لأن النتائج وحدها هي التي تحدد خطورة العمل.

ومجمل القول إن عمي جول قد انتقص كثيرا من ميراث أبي، بعد أن بدد نصفه حتى آخر سنتيم.وأرسل إلى أمريكا كالعادة المتبعة في ذلك الوقت، على سفينة تجارية كانت ذاهبة من الهافر إلى نيويورك.

وما إن وصل إلى هنالك، حتى جعل يتاجر فيما لا أعرف، ولم يلبث أن كتب إلينا بأنه يكسب بعض المال، وإنه يرجو أن يتمكن من تعويض أبي عما لحقه من ضرر. وقد ترك هذا الخطاب في أفراد الأسرة أثرًا عميقًا، فإن جول الذي لم يكن يساوي شيئًا، غدا فجأة رجلًا شريفًا، وولدًا شهمًا، وابنًا جديرًا بآل دافرانش، عفا كآل دافرانش جميعا.

وفضلا عن ذلك فقد أخبرنا أحد الربابنة، إنه استأجر دكانًا كبيرة، وإنه يدير تجارة رابحة.

وجاء خطاب آخر بعد عامين يقول فيه: "يا عزيزي فيليب، إنني أكتب إليك حتى لا تقلق على صحتي، فهي حسنة، والأعمال تسير سيرًا طيبًا كذلك،

وسأسافر غدًا في رحلة طويلة إلى أمريكا الجنوبية، وقد أقضي سنوات دون أن أوافيك بأخباري. فإن لم أكتب إليك فلا تجزع، سأعود إلى الهافر عندما أجمع ثروة كبيرة، وآمل ألا يكون ذلك بعيدًا جدًا. وسنعيش جميعا سعداء..".

وأصبح هذا الخطاب إنجيل الأسرة، يتلى في كل مناسبة، ويعرض على الناس.

ولم يعط العم جول مزيدًا من أخباره بعد ذاك طيلة عشر سنوات لكن أمل أبي كان ينمو مع الزمن، وكثيرًا ما كانت أمي تقول أيضًا:

– عندما يعود ذلك الرجل الطيب جول ستتغير حالتنا. ها هو ذا رجل عرف كيف يدبر أمر نفسه.

وفي كل "أحد" كان أبي ينظر إلى البواخر الضخمة، مقبلة من بعيد، وهي تنفث في السماء ثعابين الدخان، ويردد عبارته الخالدة:

– آه! لو كان جول فيها، فيا لها من مفاجأة!

وكنا نكاد نتوقع أن نراه يلوح بمنديله ويصيح:

– يا فيليب!

وقد بنينا ألف مشروع على هذه العودة المؤكدة، حتى أننا عزمنا أن نشتري بنقود العم جول بيتًا ريفيًا صغيرًا بالقرب من ايجوفيل، ولست أجزم بأن أبي لم يكن قد شرع فعلا في مفاوضات حول هذا المشروع.

وكانت أختي الكبرى في الثامنة والعشرين حينئذ، وكانت الثانية في السادسة والعشرين، ولم يتزوجا، وكان هذا مصدر غم شديد للجميع.

وأخيرًا تقدم خطيب للثانية، موظف محترم وإن لم يكن غنيًا، وكنت دائمًا على يقين أن خطاب العم جول، وقد أطلعنا عليه الشاب ذات مساء، هو الذي وضع حدا لتردده وحمله على الموافقة.وقبلته الأسرة بسرعة، وتقرر أن يقوم جميع أفراد العائلة بعد الزواج برحلة قصيرة إلى "جرسي".

وجرسي هي خير مكان يرحل إليه الفقراء، فهي ليست بعيدة، يعبر المرء البحر على إحدى السفن التجارية فإذا به في أرض أجنبية، وهذه الجزيرة الصغيرة ملك للإنجليز، وعلى ذلك فإن الفرنسي يستطيع بعد ساعتي سفر في البحر أن يتيح لنفسه مشاهدة شعب مجاور في وطنه، وأن يدرس طباع الناس وعاداتهم في هذه الجزيرة التي يرفرف عليها العلم البريطاني، وهي طباع يرثى لها على كل حال.

وأصبحت هذه الرحلة إلى جرسي شغلنا الشاغل، وأملنا الوحيد، وحملنا في كل لحظة وآن.

وأخيرًا رحلنا، وإني لأرى ذلك وكأنه بالأمس، الباخرة رأسية على رصيف جرانفيل. أبي وقد بدا عليه الذعر وهو يراقب شحن طرودنا الثلاثة، وأمي عليها مسحة من القلق وقد تأبطت ذراع أختي التي لم تتزوج، وكانت تبدو شاردة منذ زواج الأخرى وكأنها دجاجة بقيت وحيدة دون أفراخها، وخلفنا سار العروسان، وكانا يلزمان المؤخرة دائمًا، مما جعلني دائم الالتفات إلى الوراء.

وصفرت الباخرة، وها نحن أولاء قد صعدنا، وغادرت السفينة الرصيف، وما لبثت أن ابتعدت على بحر هادئ مستو، كأنه منضدة من رخام أخضر، وكنا ننظر إلى الشواطئ وهي تفر وراءنا، سعداء فرحين، مثل كل من يركبون البحر قليلًا.

وكان أبي يشد بطنه تحت سترته الطويلة التي نظف كل ما عليها من بقع بعناية في نفس ذلك الصباح، وكان ينشر حواليه رائحة البنزين الخاصة بأيام النزهة، والتي كانت تميز لي يوم الأحد من بين الأيام.

وفجأة رأي أبي سيدتين أنيقتين، وسيدين يقدمان لهما محارًا، وكان ثمة بحار عجوز رث الثياب، يفتح بضربة من سكينه الأصداف ويقدمها للسيدين فيناولانها بعد ذلك إلى السيدتين، وكانتا تأكلان بطريقة رشيقة، تمسكان الصدفة بمنديل رقيق وتمدان فمهما حتى لا يتسخ ثوبهما ثم تشربان الماء في حركة خفيفة سريعة وترميان الصدفة في البحر.

وافتتن أبي، من غير شك، بهذه الفعلة الممتازة، وهي أكل محار على ظهر باخرة تسير في البحر، ورأى فيها أمرًا مستحسنًا، مهذبًا راقيًا، واقترب من أمي وأختي وهو يسأل:

– هل ترغبين في أن أقدم لكن بعض المحار؟

وترددت أمي بسبب المصروف، أما أختاي فقبلتا في الحال. وقالت أمي ساخطة:

– أخشى أن أتعب معدتي.. قدم للأولاد.. ولكن لا تكثر فقد تمرضهم..

ثم التفتت نحوي وأضافت:

– أما عن جوزيف فهو في غنى عنها، يجب ألا ندلل الصبيان!

وعلى ذلك بقيت بجوار أمي، وقد أحسست ظلما في هذه التفرقة، وكنت

أتابع بعيني، أبي وهو يقود، تياها، بنتيه وصهره نحو البحار العجوز ذي الثياب الرثة.

وكانت السيدتان الراقيتان قد ذهبتا، وأخذ أبي يشرح لأختي ما يجب أن تعملاه لتأكلا دون أن يسيل الماء عليهما، وأراد أن يقدم لهما المثال، فتناول محارة، وإذ كان يحاول تقليد السيدتين، قلب، في الحال، السائل كله على سترته. وسمعت أمي تغمغم قائلة:

– ربما كان أفضل لنا أن نظل هادئين في حالنا!

وفجأة، بدا أبي قلقًا، وابتعد خطوات، وثبت نظراته في أفراد أسرته المجتمعين حول بائع المحار. وأقبل علينا فجأة. وقد شحب وجهه كثيرًا، وظهرت عيناه غريبتين وقال لأمي في صوت خفيض:

– هذا غريب! كم يشبه هذا الرجل الذي يشق المحار جول.

وسألته أمي وقد أخذها الدهش:

– أي جول؟

واستطرد أبي يقول:

– أخي.. لو لم أكن أعرف أنه يشغل مركزًا حسنًا في أمريكا، لاعتقدت أنه هو..

وتمتم أمي جزعة:

– أنت مجنون. مادمت تعرف جيدًا أنه ليس هو، فلم تقول هذه الترهات؟

وواصل أبي في إصرار:

– اذهبي إذن لتشاهديه يا كريس، إنني أوثر أن تتأكدي من ذلك بنفسك، بعينيك أنت.

فنهضت لتحلق ببنتيها. وكنت أنا أنظر إلى الرجل أيضًا. كان عجوزًا، قذرًا، كله غضون وتجاعيد، ولم يكن يحول نظره عن عمله.

وعادت أمي. ولاحظت أنها ترتجف، ونطقت بهذه الكلمات في سرعة كبيرة:

– أعتقد إنه هو. اذهب واستقص أخباره من القبطان. ولكن كن حذرًا حتى لا يقع هذا الشقي عالة علينا الآن!

وابتعد أبي، وتبعته وقد داخلني قلق شديد.وكان القبطان رجلًا طويل القامة، نحيف الجسم، طويل شعر السلافتين، وكان يمشي على ظهر السفينة متظاهرًا بالعظمة، وكأنه يقود باخرة إلى الهند.ودنا منه أبي في احتفال، وأخذ يسأله عن عمله مكيلًا له عبارات المديح:

– ما هي أهمية جرسي؟ ومنتجاتها؟ وسكانها؟ وأخلاقهم؟ وعاداتهم؟ وطبيعة أرضها.. الخ.

وكنت تعتقد أن الأمر يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية على الأقل!

ثم تحدثا عن السفينة التي تقلنا "الاكسبريس" وتطرق الحديث إلى البحار.. وأخيرًا قال أبي في صوت مضطرب:

– لديك هنا عجوز يقشر المحار، إنه يبدو غريبًا حقًا. أتعرف بعض التفاصيل عن هذا الرجل؟

فأجاب القبطان بجفاء، وقد انتهت هذه المحادثة بإثارته:

– إنه فرنسي عجوز متشرد وجدته في أمريكا في العام الماضي وأعدته إلى وطنه ويقال أن له أهلا في الهافر، ولكنه لا يريد أن يعود إليهم. فهو مدين لهم ببعض المال.. اسمه جول.. جول دارمانش أو دارفانش، شيء من هذا القبيل ويقال إنه كان غنيًا هناك. ولكنك ترى إلام انتهى أمره الآن؟

أما أبي فقد أغبر وجهه واختنقت نبراته وزاغ بصره وهو يقول:

– آه! آه! حسن جدًا.. حسن للغاية.. هذا لا يدهشني قط.. أشكرك كثيرًا يا سيدي القبطان!

وذهب بينما كان القبطان ينظر إليه وهو يبتعد في ذهول.

وعاد إلى جوار أمي، وقد نال منه الانهيار كل منال، الأمر الذي جعلها تقول له:

– اجلس وإلا لاحظ الناس شيئًا!

وتهادى على مقعد وهو يتمتم:

- إنه هو.. هو بعينه.

ثم سألها ماذا نحن فاعلان؟..

فأجابت بحرارة:

– يجب إبعاد الأولاد.. مادام جوزيف يعرف كل شيء فسوف يذهب لإحضارهم يجب أن نحترس، حتى لا يشك صهرنا في شيء.

وبدا الذعر على أبي فتمتم يقول:

- يا لها من كارثة.

واستطردت أمي وقد ثارت فجأة:

- ما أكثر ما خطر لي أن هذا اللص لن يفعل شيئًا، وإنه سيقع على عاتقنا، وهل ينتظر الإنسان شيئًا من أبناء دافرانش؟

ومر أبي بيده على جبهته كما كان يفعل كلما أنبته أمي. وأضافت:

- أعط جوزيف نقودًا، حتى يذهب ويدفع ثمن المحار. الآن لا ينقصنا إلا أن يتعرف علينا هذا الشحاذ، وسيكون لهذا أبدع الأثر على الباخرة. هيا بنا إلى الطرف الآخر، وتصرف بحيث لا يقترب هذا الرجل منا.

ونهضت، وابتعدا بعد أن أعطياني قطعة من ذوات الخمسة الفرنكات.

وكانت أختاي تنتظران أباهما في دهشة.. وأكدت لهما أن أمي أحست تعبا بسبب البحر. وسألت فاتح المحار:

- بكم نحن مدينون لك يا سيدي؟

وشعرت برغبة في أن أقول له: يا عمي!

فأجاب:

- فرنكين ونصف.

فمددت يدي بالفرنكات الخمسة. وأعاد إلي الباقي.

وجعلت أنظر إليه وإلى يده.. يد بائسة، يد بحار معروقة. وأخذت أرنو

إلى وجهه.. وجه عجوز تعس حزين مرهق. وقلت في نفسي:

- إنه عمي، أخو أبي، عمي!

ونفحته نصف فرنك. فشكرني:

- بارك الله فيك أيها السيد الشاب!

قالها في لهجة فقير يتناول إحسانًا. وخطر لي إنه قد اضطر إلى الاستجداء هناك. وكانت أختاي تتأملاني مذهولتين لكرمي.

ولما أعدت الفرنكين لأبي. سألتني أمي دهشة:

- هل أخذتم بما يساوي ثلاثة فرنكات؟ هذا لا يمكن!

فأعلنت في صوت قوي:

- أعطيته نصف فرنك هبة..

وانتفضت أمي ونظرت في عيني:

- إنك مجنون! تعطي نصف فرنك لهذا الرجل.. لهذا الصعلوك!..

وتوقفت إثر نظرة من أبي، نظرة تشير إلى صهره.

ثم ساد الصمت. وأمامنا في الأفق، كان ثمة شبح بنفسجي يبدو بارزًا من البحر.. إنها جزيرة جرسي.

وعندما اقتربنا من الرصيف، أحسست برغبة شديدة تختلج في قلبي، رغبة في أن أرى مرة ثانية عمي جول، وأن أقترب منه، وأن أُول له كلمات عزاء.. رقيقة.

لكنه كان قد اختفى، إذ لم يبق أحد ليأكل المحار.. لقد نزل من غير شك إلى قاع السفينة القذر.. حيث كان يسكن هذا البائس المسكين..

وعدنا على سفينة "سان مالو" حتى لا نلتقي به. وكان القلق يلتهم قلب أمي..

ولم أر بعد ذلك عمي قط..

ولهذا السبب ستراني أعطي، في بعض الأحيان، خمسة فرنكات للفقراء المشردين.

قطعة الدوبارة

كان الفلاحون وزوجاتهم مقبلين على طول الطرق المحيطة ببلدة جودرفيل. فاليوم يوم السوق. والرجال يسيرون في خطى وئيدة، وأجسامهم تندفع إلى الأمام مع كل حركة من سيقانهم الطويلة الملتوية، التي شوهها الكد والنصب الطويل، وشدة الضغط على المحراث الذي يرفع الكتف الأيسر، ويعوج القوام في آن واحد، وكذلك حصاد القمح الذي يفرج ما بين الركبتين ليمكن الرجل من الثبات على الأرض. وكل تلك الأعمال الريفية البطيئة المضنية. وكانوا مرتدين معاطفهم الزرقاء المنشاة اللامعة كأنها صقلت بالورنيش. وعليها رسم صغير بالخيط الأبيض فوق الياقة والأكمام. أما قمصانهم فمنتفخة حول صدورهم ذات العظام الناتئة، فكأنها مناطيد تستعد للطيران، وقد برز منها رأس وذراعان وقدمان.

وكان بعضهم يسحب بقرة أو عجلا من طرف حبل، ونساؤهم يمشين خلف الحيوان ويضربنه على أصلابه بفرع شجرة أخضر، ليجعل من سيره. وكن يحملن على أذرعهن سلالًا كبيرة، تخرج منها رءوس دجاج أو بط. ويمشين في خطى أقصر من خطى أزواجهن وأسرع منها، يمشين بقامتهن النحيلة المعتدلة، وقد وضعن على أكتافهن شالًا صغيرًا شبك بدبوس على صدورهن المسطحة. أما رءوسهن فقد غطينها بقماش أبيض ملتصق بالشعر، وارتدين فوقها قلنسوة.

وكانت تمر عربات ذات مقاعد، يخب حمارها خببًا مضطربًا، وتهز في

عنف، رجلين جالسين جنبا إلى جنب، وامرأة قاعدة في مؤخرة العربة متشبثة بحافتها، لتخفف من أثر الرج العنيف.

وفي ميدان جودرفيل زحام وأي زحام،حشد مختلط من الأناسي وإبلهم. وكانت قرون الثيران والقبعات العالية ذات الوبر الطويل التي يلبسها أغنياء الفلاحين، وقبعات الفلاحات تطفو فوق سطح هذه الحشود. وكانت الأصوات الزاعقة الحادة النابحة، تصخب صخبًا مستمرًا وحشيًا، تعلو عليه أحيانًا ضحكة مدوية تندفع من صدر فلاح قوي مرح، أو خوار بقرة مربوطة إلى حائط أحد المنازل.

وكان كل ذلك ينشر رائحة الحظيرة واللبن والسباخ والعرق، تلك الرائحة التي تميز أهل الريف، رائحة ذات طعم فظيع فهي خليط من روائح الإنسان والحيوان.

وكان المعلم هوشكورن، وهو من أهالي بلدة بريوتيه، قد وصل لتوه إلى جودرفيل، وكان يتجه ناحية الميدان فلمح على الأرض قطعة صغيرة من الدوبار. وكان المعلم هوشكورن نورمانديا أصيلا في حرصه على المال، يرى أن كل ما يمكن الإفادة منه جدير بأن يلتقط من الأرض، فانحنى في عسر– فقد كان يعاني من داء الروماتيزم– والتقط قطعة الحبل الرفيع. وبينما هو يتأهب للفها بعناية، لاحظ أن المعلم مالاندان المنجد على عتبة بيته يرقبه. وكان قد نشب بينهما شجار في الماضي بشأن مقود، وباتا على ضغن، فقد كان كلاهما حقودًا. وخجل المعلم هوشكورن لأن عدوه ضبطه يفعل هذه الفعلة، ويلتقط من الوحل قطعة من الدوبارة. فأخفى في الحال لقيته تحت قميصه ثم في جيب سرواله، وتظاهر بأنه ينبش الأرض باحثًا عن شيء لا يجده، ثم اتجه رأسًا ناحية السوق، مقوس الظهر من الآلام.

وسرعان ما ضاع أثره وسط الحشد الصاخب الوئيد، الذي تشغله مساومات لا تنقضي. وكان الفلاحون يتحسسون البقرات ويروحون ويجيئون، مترددين حائرين، فهم يخافون الغش ولا يجرؤون أبدًا على أن يحزموا أمرهم، تراهم يراقبون عيني البائع، ويحاولون- ولا ينتهون من محاولاتهم- أن يكتشفوا خداع الرجل وعيب الحيوان.

أما النساء فقد وضعن سلالهن الكبيرة أمام أقدامهن، وأخرجن منها دواجنهن المقلاة على الأرض، مقيدة القوائم وقد بدا الخوف في عيونها، واحمرت أعرافها. كن يستمعن إلى العروض، ويتمسكن بالأثمان، ويبدو عليهن الجمود ولا يظهر على وجوههن أي أثر. ثم يقبلن فجأة السعر المقترح، فإذا بهن ينادين العميل الذي أخذ في الابتعاد ببطء ويقلن له:

- اتفقنا يا سيد أنتيم. إنني أعطيك إياه.

وخلا الميدان شيئًا فشيئًا. ودقت صلاة التبشير مؤذنة بالظهر. وتفرق الآتون من قرى بعيدة في حانات البلدة.

وكانت القاعة الكبرى في حانة "جوردان" ممتلئة بالآكلين، كما كان الفناء الواسع يعج بالعربات من كل نوع: فمن عربات عادية إلى عربات خفيفة، ومن عربات ذات مقاعد إلى عربات انجليزية الطراز إلى غير ذلك مما لا يعرف له اسم من صنوف العربات، وكانت جميعها مصفرة من الوحل، مشوهة مرقعة، وقد رفعت مربطي الدابة إلى السماء كذراعين، أو وضعت أنفها في الأرض وعجزها في الهواء.

وبالقرب من جماعة الآكلين وحول المائدة ترى المدفأة الكبيرة مليئة

بلهب وضاء تسلط حرارتها الحامية على ظهر المصطفين إلى اليمين. وثمة ثلاثة أسياخ تدور فوق النار، وقد أسلكت فيها الكتاكيت والحمام وقطع اللحم. وكانت تتصاعد من الموقد روائح اللحوم الشهية والعصير السائل من الشواء، فتشعل المرح في النفوس، وتسيل اللعاب في الأفواه.

وكان سراة الفلاحين يأكلون عند المعلم "جوردان" صاحب الحانة، وبائع الخيل، ذلك الرجل المكار الرائج الحال.

وكانت الصحاف تدور فلا تلبث أن تفرغ وكذلك أباريق شراب السيدر الأصفر. وراح كل واحد يتحدث عن أعماله ومشترياته ومبيعاته، والجميع يتقصون أنباء المحاصيل، ويقولون: الجو ملائم للعلف الخضر ولكنه قاس شيئًا ما بالنسبة للقمح.

وعلى حين فجأة قرع الطبل في الفناء أمام الحانة، ووقف الجميع لتوهم، إلا فريقا من غير المكترثين، ورجوا إلى الباب والنوافذ، وأفواههم مازالت مليئة بالطعام، والمناشف في أيديهم.وبعد أن انتهى المنادي من قرع طبلته جعل يلقى في صوت متقطع، ويزن عبارته وزنًا مكسورًا:

– نعلن على سكان جودرفيل، والأشخاص الحاضرين في السوق جميعا على وجه العموم، أنه قد فقدت هذا الصباح على طريق يوزيفيل، بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، محفظة من الجلد الأسود بها خمسمائة فرنك وأوراق خاصة بالأعمال.. والمرجو إعادتها إلى دار العمدة في الحال، أو إلى دار المعلم فورتونيه هولبريك، من مدينة مانفيل. وقد خصصت جائزة قدرها خمسة وعشرون فرنكا.

ثم انصرف الرجل، وسمعت مرة أخرى، من بعيد، دقات الآلة الصماء. وصوت المنادي وقد وهن.وعندئذ شرعوا يتكلمون عن هذا الحادث وهم يعددون إمكانيات المعلم هولبريك في أن يجد حافظة نقوده أو لا يجدها.

وانتهى الطعام.كانوا على وشك الانتهاء من تناول القهوة، عندما ظهر رئيس الشرطة على عتبة الدار..وسأل:

– المعلم هوشكورن من أهالي بلدة بريوتيه.. هل هو هنا؟

وأجاب المعلم هوشكورن وكان يجلس في الطرف الآخر من المائدة:

– ها أنا ذا!

واستطرد رئيس الشرطة يقول:

– هل تتفضل يا معلم هوشكورن بمصاحبتي إلى دار العمدة. فإن السيد العمدة يريد أن يتحدث إليك.

وشرب الفلاح كوبه الصغير دفعة واحدة، وقد تملكه الدهش والقلق، ونهض محني الظهر، أكثر مما كان في الصباح، لأن أول خطوات كان يخطوها بعد كل فترة راحة كانت قاسية.. وسار في طريقه وهو يكرر:

– ها أنا ذا! ها أنا ذا!

وسار في أثر رئيس الشرطة.

وكان العمدة ينتظره جالسا في مقعده. وهو يعمل في القوت عينه موثقًا للعقود بالإقليم، وهو رجل بدين وقور يفخم في كلامه، فقال له:

– لقد شوهدت يا معلم هوشكورن وأنت تلتقط في طريق يوزيفيل حافظة النقود التي فقدها المعلم هولبريك من بلدة مانفيل.

وكان الفلاح المتحير ينظر إلى العمدة، وقد أدركه الخوف لمجرد هذا الشك الذي وقع عليه، دون أن يدري لذلك سببا.

– أنا.. أنا.. التقطت هذه المحفظة؟

– نعم أنت نفسك.

– أقسم بشرفي، لم أسمع عنها قط.

– لقد شوهدت وأنت تلتقطها.

– شوهدت أنا؟ من ذا الذي شاهدني؟

– السيد مالاندان المنجد.

عندئذ تذكر العجوز، وفهم كل شيء، واحمر وجهه من الغضب:

– آه! هذا الجلف رآني! رآني ألتقط هذه الدوبارة.. إليك يا سيدي العمدة.

وأخذ يبحث في قاع جيبه، وأخرج قطعة الحبل الصغيرة.لكن العمدة كان يهز رأسه غير مصدق:

– إنك لن تجعلني أصدق يا معلم هوشكورن، أن السيد مالاندان – وهو رجل موثوق به– قد ظن هذه الدوبارة حافظة نقود.ورفع الفلاح يده في سخط، وبصق على جانب ليؤكد صدقه، وجعل يكرر:

– ولكنها الحقيقة، علم الله، يا سيدي العمدة، وأقسم على ذلك.

واستطرد العمدة يقول:

– وبعد أن التقطت الحافظة، بحثت طويلًا في الوحل، عما عساه وقع من النقود.

وخنق الغضب والغيظ الرجل فقال:

– هل يستطيع أحد أن يقول!.. هل يستطيع أحد أن يقول أكاذيب من هذا النوع لتشويه سمعة رجل شريف؟ هل يستطيع أحد أن يقول؟

وعبثا احتج، فلم يصدقه أحد.

ووجه بالسيد مالاندان الذي أعاد أقواله وأيدها. وتبادلا السباب ساعة بأكملها. وفتش المعلم هوشكورن بناء على طلبه، ولم يعثر معه كل شيء.وأخيرًا صرفه العمدة وقد تمتلكه حيرة شديدة، وأنذره بأنه سيخطر النيابة، وينتظر أوامرها.

وذاع الخبر، وحوصر العجوز عند خروجه، وسأله أهل الفضول، بعضهم جاد وبعضهم ساخر، ولا أحد يستنكر ما حدث. وشرع يقص حكاية الدوبارة ولم يصدقه أحد، بل كانوا جميعا يضحكون.

وسار الرجل يستوقفه الجميع، ويستوقف هو معارفه، ويكرر تكرارًا لا نهاية له، قصته واحتجاجاته ويعرض جيوبه مقلوبة، ليثبت براءته.وكانوا يقولون له أيها العجوز المكار، إليك عنا!

وغضب أشد الغضب وأوغر صدره، وبدا ثائرًا حزينًا لأن أحدًا لا يصدقه. ولم يدر ماذا يفعل، وكان لا يكف عن سرد قصته.

وأقبل الليل، وكان لابد أن يرجع إلى قريته، واتخذ طريقه مع ثلاثة من جيرانه، أراهم المكان الذي التقط منه قطعة الحبل، وكان طيلة الطريق يتحدث عن هذا الحادث..وطوف في أنحاء قرية بريوتيه ليروي قصته على الجميع. ولم يصدقه أحد.. وبات ليلته مريضًا من الهم.

وحول الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي، أعاد "ماريوس بوميل" — العامل في مزرعة المعلم "بريتون" المزارع في مدينة ايموفيل– الحافظة ومحتوياتها للمعلم هولبريك من أهالي بلدة مانفيل.

وقال الرجل إنه وجدها على قارعة الطريق، ولكن لجهله القراءة حملها إلى المنزل ودفع بها إلى سيده.وانتشر الخبر في الأقاليم المجاورة، وعلم به المعلم هوشكورن، وفي الحال بدأ طوافه، وأخذ يروي قصته كاملة، مضيفا إليها هذه الخاتمة الجديدة.. يقول بلهجة المنتصر:

– لم يحزني الأمر في ذاته، ولكنه الكذب، فليس ثمة شيء يؤذي الإنسان أكثر من أن يتهم بسبب كذبة.

وقضي النهار بطوله يتكلم عن الحادث، مع عابري السبيل، ومرتادي الحانة، مع المصلين الخارجين من الكنيسة في يوم الأحد التالي. وعاوده الاطمئنان، ولكن شيئا ما كان يضايقه، دون أن يدري تمامًا ما هو. كان يبدو على الناس أنهم يسخرون وهم يستمعون إليه. لم يكن يبدو عليهم أنهم اقتنعوا، وكان يخيل إليه أنه يسمع أحاديث خلف ظهره.

وفي يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، ذهب إلى سوق جودرفيل بدافع الحاجة إلى سرد قصته فحسب.

وكان مالاندان واقفا على بابه، فأخذ يضحك عندما رآه يمر من أمامه. لماذا؟

ودنا من أحد المزارعين من أهالي ناحية كريكتو، فلم يدعه يتم حديثه، وأخذ يضربه في بطنه ويصيح في وجهه: "أيها العجوز الماكر. إليك عني!" ثم أعطاه ظهره وانصرف.

وبقي المعلم هوشكورن حائرًا، وأخذ قلقه يزداد شيئًا فشيئًا، لماذا دعاه، بالماكر العجوز؟

وعندما جلس إلى المائدة في خان جوردان، راح يفسر الأمر من جديد.فصاح به أحد تجار الخيول من أهالي ناحية مونتفيلييه:

– مهلا مهلا أيها العجوز.. لقد كشفت لعبتك، إنها لعبة قديمة.

وتمتم هوشكورن يقول:

– ما داموا قد وجدوا هذه الحافظة؟

غير أن الآخر استطرد يقول:

– صه يا أبتي.. هناك من يجد وهناك من يعيد.. ولا من رأى ولا من عرف.. أنا لا أبرئك منها.

وأفحم الفلاح. لقد فهم أخيرًا.. كانوا يتهمونه بأنه أعاد الحافظة بواسطة رفيق أو شريك له.وأراد أن يحتج، فأخذ من على المائدة جميعا يضحكون.ولم يستطع أن يتم وجبته، وانصرف وسط تهكماتهم.

وعاد إلى بيته خجلًا محنقًا، يخنقه الغضب والخزي. وزاد من ضيقه أنه

كان قادرًا– كنورماندة ماكر– على أن يفعل ما يتهمونه به، بل وأن يفاخر به على أنه لعبة موفقة. وكانت براءته تبدو له مستحيلة الإثبات، ذلك أن مكره كان ذائع الصيت. وأحس بأنه يطعن في قلبه لما انطوى عليه هذا الشك من ظلم.

وعلى ذلك فقد عاود سرد قصته، وأخذ يطيل كل يوم في الرواية، مضيفًا في كل مرة، أسبابًا جديدة وحججًا أقوى، وأقسامًا أغلظ كان يبتدعها ويعدها في ساعات وحدته، وقد شغلت ذهنه قصة الدوبارة وحدها. وكانت شدة دفاعه وكثرة براهينه، مدعاة لتكذيب الناس له.

وكان الناس يقولون من وراء ظهره:

– هذه تعليلات كذاب.

وأحس هو بذلك، واحترق غيظًا وكمدًا، وأجهد نفسه وبذل جهودًا لا طائل تحتها.ووهن وهنا ظاهرًا للعيان.

وكان المداعبون يحملونه على أن يحكي قصة "الخيط" ليرفهوا عن أنفسهم، كما يطلب إلى الجندي العائد من الحرب أن يقص عليهم قصة موقعته. وأصيب عقله، وأخذ يضعف.

وحول آخر ديسمبر، لزم الفراش.

ومات في الأيام الأولى من يناير، وكان يؤكد براءته وهو يهذى ساعة الاحتضار.. ويكرر:

– دوبارة صغيرة.. دوبارة صغيرة.. إليك.. ها هي، يا سيدي العمدة.

الحارس

كنا نتحدث عن مغامرات الصيد وحوادثه بعد العشاء. وفجأة قال صديق عزيز علينا جميعا، وهو السيد "بونفاس" الصياد الحاذق وعاشق النبيذ المفرط في شربه، وهو رجل متين الأسر، مرح، كله ظرف وحكمة وفلسفة ساخرة مستسلمة، تتجلى دائما في دعابات طريفة لاذعة، فهو لا يعرف الكآبة أبدًا.. قال:

– إنني أعرف قصة من قصص الصيد، أو بالأحرى مأساة فريدة في نوعها، وهي لا تشبه قط ما يعرفه الجميع منها. ولم أقصصها من قبل ظنا مني أن أحدًا لن يجد فيها غناء.فهي ليست جذابة، أعني لا تنطوي على ذلك الضرب من الفتنة التي تأسر اللب، أو تسلب القلب، أو تؤثر في النفس تأثيرًا مستحبًا.وعلى كل حال، إليكم القصة:

كنت في ذلك الوقت في الخامسة والثلاثين من عمري تقريبًا، وكنت من أكثر الناس للصيد.

وكنت أملك أرضا منعزلة في ضواحي "جومييج" تحيط بها الغابات، وتصلح لصيد الأرانب، وحشيها ومستأنسها. وكنت أذهب وحدي لأقضي فيها أربعة أيام أو خمسة كل عام،لأن الاستعداد هناك لم يكن يسمح لي بأن أصطحب صديقًا.

وكنت قد أقمت على حراسة الأرض شرطيًا قديمًا بالمعاش، كان رجلًا شهمًا عنيفًا صارمًا فيما يختص بالأوامر. رهيبًا مع كل صياد ينتهك أرض

الغير، ولا يهاب شيئًا. وكان يسكن وحده بعيدًا عن القرية في بيت صغير، أو بالأحرى في كوخ يتكون من غرفتين في الطابق الأرضي: هما المطبخ والمخزن، وحجرتين في الطابق الأول. وكانت إحداهما أشبه بمقصورة ولا تتسع لغير سرير وصوان ومقعد فحسب.. وكانت محجوزة لي.

وكان الحارس العجوز كافالييه يشغل الحجرة الأخرى. وقد أخطأت التعبير حينما قلت إنه كان وحده في هذا المسكن. فقد أخذ معه ابن أخيه، وهو فتى شقي في الرابعة عشرة من عمره. وكان يذهب لإحضار المؤن من القرية على مبعدة ثلاثة كيلومترات، ويعاون العجوز في أعماله اليومية.وكان هذا الفتى طويلًا هزيلًا مقوس الظهر، أصفر الشعر، خفيفة، بحيث يبدو كزغب دجاجة مندوفة الريش، وهو إلى ذلك قليل جدًا بحيث يظنه الرائي أصلع الرأس. وكانت له قدمان كبيرتان ويدان جبارتان كيدي تمثال ضخم.

وكان بعينيه شيء من الحول، فلا يستطيع أن يثبت نظراته على أحد، وكنت أتخيله يحتل بين بني البشر مكانة البهائم الدنسة في مملكة الحيوان، كان هذا الشقي خنزيرًا أو ثعلبًا! كان ينام في شيء أشبه بالجحر في أعلى الدرج الصغير الموصل إلى الطابق العلوي.

ولكن، في فترة إقامتي القصيرة في هذا "الجناح" —فقد كنت أسمي هذا الكوخ "الجناح" — كان ماريوس ينزل عن مخدعه لامرأة عجوز من قرية ايكورسفيل، تدعى سيليست، كانت تأتي لتطهي الطعام لأن طعام الشيخ كافالييه لم يكن كافيًا قط.

أنتم تعرفون إذن الأشخاص والمكان، وإليكم الآن بالمغامرة.

كان ذلك عام ١٨٥٤ في اليوم الخامس عشر من أكتوبر، إنني لأذكر هذا التاريخ ولن أنساه أبدًا.غادرت مدينة روان على صهوة جواد يتبعني كلبي "بوك" وهو من خيرة كلاب الصيد، عريض الصدر، واسع الفم، كان يجوس خلال العوسج مثل كلاب "بون أوديمير" الشهيرة.وكنت أحمل ورائي على الحصان، حقيبة سفري، وأعلق بندقيتي إلى كتفي في سيرها الجلدي. وكان ذلك اليوم يومًا باردًا، يوم ريح عاتية كئيبة، وغيوم قاتمة تذرع السماء.

وبينما كنت أصعد منحدر "كانتلو" كنت أرى وادي السين الفسيح، يتخلله النهر أمامي حتى الأفق متعرجًا كالثعبان، وكانت روان تبدو على اليسار، وقد ارتفعت في السماء ذرى قباب كنائسها، وعلى اليمين يمتد البصر حتى تقفه المرتفعات البعيدة المغطاة بالغابات. ثم اجتزت غابة "رومار" وكنت أقطع الطريق سيرًا تارة وعدوًا تارة أخرى، حتى وصلت نحو الخامسة أمام "الجناح" حيث كان الشيخ كافالييه وسيليست في انتظاري. وقد اعتدت منذ عشر سنوات أن أحضر إلى هذا المكان في مثل ذلك الوقت، وعلى هذا النحو، واسمع في كل مرة عين التحيات ترددها نفس الشفاه.

– أسعد الله نهارك يا سيدنا.. هل الصحة طيبة؟

لم يتغير كافالييه إلا قليلًا. كان يصمد. للزمن كشجرة عجوز. أما سيليست فكان الزمن ينال منها وخاصة منذ أربع سنوات إذ صارت خلقا آخر. لقد تقوس ظهرها حتى ليخيل لمن يراها إنها انكسرت من وسطها، ورغم احتفاظها بنشاطها إلا أنها كانت تسير وقد انحنى جذعها فكون مع ساقيها شبه زاوية قائمة.

وكانت هذه المرأة العجوز الوفية، تتأثر كلما رأتني أعود، فإذا أزمعت الرحيل قالت لي:

– تذكر، يا سيدنا العزيز، أن هذه قد تكون المرة الأخيرة.

وكان وداع هذه الخادم البائسة، ذلك الوداع الحزين الوجل، واستسلامها اليائس للموت المحتوم، وأجله دان منها بلا شك، كان كل ذلك يمس شغاف قلبي في كل عام.

ونزلت عن الحصان، وبعد أن صافحت كافالييه، قاد بهيمتي إلى المبنى الذي كنا نتخذه اصطبلًا. وفي هذه الأثناء، دخلت وسيليست من ورائي إلى المطبخ الذي كنا نتخذه أيضًا حجرة للمائدة.

ثم لحق بنا الحارس، ولاحظت من أول نظرة تغيرًا على محياه. كان يبدو مشغول الفكر، مضطرب الخاطر، قلق البال.

فقلت له:

– حسنا يا كافالييه! هل تسير الأمور كما تشتهي؟

فتمتم يقول:

– نعم ولا... ولكن هناك أشياء كثيرة لا تسرني.

فسألته:

– وما هي إذن يا عزيزي؟ خبرني!

لكنه هز رأسه قائلًا:

– لا، ليس الآن يا سيدي، لا أريد أن أثقل عليك بهمومي ساعة وصولك.

وألححت عليه، ولكنه رفض رفضًا باتًا أن يطلعني على شيء قبل العشاء، وفهمت من مظهره أن الأمر جد خطير، ولم أعد أدري بماذا أتحدث، وأخيرًا قلت:

– والصيد؟ ألدينا منه ما يكفي؟

– أوه! أما عن الصيد! فنعم، فهو موجود، موجود.. ستجد منه ما تريد، لأني فتحت عيني ولله الحمد!

كان يقول ذلك في جد بالغ، وصرامة شديدة، بحيث أصبح منظره مضحكًا. وكان شاربه الضخم الذي وخطه الشيب يبدو متهدلًا على شفتيه.وفجأة لاحظت أنني لم أر ابن أخيه بعد، فقلت:

– وماريوس؟ أين هو؟ لماذا لم يظهر حتى الآن؟

وانتفض الحارس، ونظر إلى وجهي وقال:

حسنا يا سيدي! أفضل أن أخبرك بالقصة في الحال، نعم أفضل ذلك، فإن ما أشعر به في قلبي من سخط راجع إليه.

– آه! آه! حسنا! وأين هو إذن؟

– إنه في الإسطبل يا سيدي.

– وما الذي فعله إذن؟

– إنه....

ولكن الحارس تردد ثم تغير صوته واضطرب، وامتلأ وجهه فجأة بتجاعيد عميقة.. تجاعيد شيخ فان.وعاود الكلام في بطء.

– إليك القصة: لاحظت أن أفخاخًا تنصب في غابة "الروزوريه" لكنني عجزت عن القبض على الفاعل. وصرت أقضي فيها الليالي بطولها. ولا نتيجة لهذا. وفي أثناء ذلك نصبت الأفخاخ جهة "ايكورسفيل" فمرضت من الغيظ. أما القبض على اللص.. فمستحيل، وكأن هذا الصعلوك يعرف خطواتي واتجاهاتي سلفا!

ولكن بينما كنت أنظف ذات يوم سروال ماريوس، سرواله الذي يلبسه يوم الأحد، وجدت فرنكين في جيبه.. من أين حصل عليهما هذا الخبيث؟!

وفكرت في الأمر مليًا، مدة ثمانية أيام. ولاحظت أنه كان يخرج في الوقت الذي أدخل فيه للنوم بالضبط.. نعم يا سيدي. عندئذ أخذت أراقبه. وذات يوم ذهبت للنوم أمامه، ثم نهضت في الحال، واقتفيت أثره، وليس هناك واحد مثلي في اقتفاء الأثر، يا سيدي! وهكذا أمسكت به، نعم أمسكت بماريوس وهو يصيد بالفخاخ في أراضيك يا سيدي. نعم هو.. ابن أخي أنا.. حارسك!

وفار الدم في عروقي، وكدت أقتله لساعته.. لفرط ما ضربته.. آه! نعم ضربته! ووعدته بالضرب أيضًا في حضرتك يا سيدي عندما تأتي، سأؤدبه بيدي.. ليصير عبرة ومثلا.

وهكذا مرضت من الغم. وأنت تعرف كيف تكون الحال عندما يغتم الإنسان على هذا النحو. لكن ما الذي كنت تفعله أنت.. قل لي! لم يعد له أب ولا أم.. هذا الصبي! لم يبق له من أقرباء سواي! لقد أبقيته معي، لم أكن أستطيع طرده، أليس كذلك؟

ولكني أنذرته بأنه إذا عاد إلى فعلته، فقد انتهى الأمر.. ولن أشفق عليه بعد ذلك. هذه هي القصة. هل أحسنت صنعا يا سيدي؟

فأجبته وأنا أمد إليه يدي:

– لقد أحسنت صنعا يا كافالييه! إنك رجل شهم.

– شكرًا جزيلًا يا سيدي. الآن سأذهب لإحضاره. لابد من تأديبه للعبرة!

وكنت أعرف ألا فائدة في محاولة إرجاع الشيخ عن عزمه، وتركته يتصرف كما يشاء.وذهب لإحضار الفتى، وأتى به وهو يمسك بأذنه.وكنت جالسًا على مقعد من قش. وقد اتخذ وجهي صرامة القاضي.وبدا لي ماريوس أكبر جسما وأشد قبحا منه في السنة الماضية، بدا كذلك بمحياه الشرير الخبيث.وبدت يداه الغليظتان فظيعتين.ودفعه عمه أمامي، وقال بصوته العسكري:

– اطلب العفو من صاحب الأرض!

ولم ينبس الفتى بكلمة.وعندئذ، رفعه الشرطي عن الأرض وقد أمسكه من ذراعيه، وراح يضربه على عجزه في عنف شديد جعلني أنهض لأوقف الضرب.وفي هذه اللحظة، أخذ الفتى يصيح:

– العفو! العفو! أعد بأن...

ووضعه كافالييه على الأرض ثانية، وأجبره وهو يضغط على كتفيه أن يجثو أمامي. وقال له:

– سله العفو!

وكان الفتى يهمس وقد خفض من عينيه:

– أسألك العفو.

عندئذ أنهضه عمه وصرفه بصفعة كادت تقلبه أرضًا، واختفى من أمامي، ولم أره طوال الليل.لكن كافالييه كان يبدو معذبًا ثم قال:

– هذه طبيعة شريرة.

وجعل يردد أثناء العشاء:

– إنه لأمر محزن يا سيدي.. إنك لا تعرف كم يحز هذا في قلبي.

وحاولت أن أسري عنه، ولكن دون جدوى. وذهبت إلى الفراش مبكرًا، لأبدأ صيدي مع طلوع النهار.وعندما أطفأت المصباح، كان كلبي قد نام على أرضيه الغرفة قرب فراشي.وحول منتصف الليل أيقظني نباح فظيع، نباح كلبي بوك. ولاحظت في الحال أن حجرتي قد امتلأت دخانًا، فقفزت من مضجعي وأوقدت المصباح وجريت إلى الباب وفتحته، فدخلت غرفتي دوامة من اللهيب، كان البيت يحترق. وبأقصى سرعة، أغلقت الباب، وارتديت سروالي وأنزلت كلبي من النافذة، بواسطة حبل صنعته من أغطية الفراش. ثم هربت بدوري بالطريقة نفسها، بعد أن قذفت إلى الخارج بثيابي، وحقيبة صيدي وبندقيتي.

وجعلت أصرخ بكل قواي:

– كافالييه! كافالييه! كافالييه!

لكن الحارس لم يستيقظ، فقد كان ينام نومًا عميقًا، نوم شرطي

عجوز.ورأيت الطابق الأرضي قد صار فرنًا مشتعلًا، ولاحظت أن شخصا ما كان قد ملأه بالقش لينتشر الحريق سريعًا.

إذن فقد كان الحريق عن عمد. وعدت أصيح في ثورة:

– كافالييه!

وحينئذ خطر لي خاطر.. أن الدخان يخنقه.. ولاحت لي فكرة فدسست رصاصتين في بندقيتي، وأطلقت طلقة في وسط النافذة..

وانفجرت الألواح الستة ناشرة في الحجرة شظايا الزجاج. وسمع الشيخ هذه المرة، وظهر مذعورًا بقميصه، وقد روعه على وجه الخصوص، هذا الوميض الذي كان يتوهج منيرًا واجهة البيت كلها. وصحت به:

– بيتك يحترق! اقفز من النافذة. أسرع! أسرع!

وأخذت ألسنة اللهيب تخرج فجأة من الفتحات السفلي، وتعلق الحائط حتى تصل إليه. وتكاد عليه الطريق، فقفز وسقط على قدميه كالقط. لقد خرج في الوقت المناسب، إذ كان السقف المصنوع من القش قد تداعى من وسطه فوق الدرج، الذي أصبح بمثابة المدخنة للنار السفلى، وارتفعت في الفضاء باقة حمراء هائلة كأنها قمة نافورة. وجعلت تنشر وابلا من الشرر حول الكوخ. وفي بضع ثوان، صار الكوخ كتلة من اللهيب.وسأل كافالييه مذعورًا:

– كيف حدث هذا؟

وأجبت:

– لقد أشعل شخص ما النار في المطبخ.

وغمغم يقول:

– ولكن من الذي أشعلها؟

ومرت بذهني فكرة مفاجئة:

– ماريوس!

وفهم العجوز.. وهمس قائلًا:

– أوه.. بالله.. ألهذا.. لم يعد؟

ولكن خاطرًا فظيعًا مر في رأسي فصحت:

– وسيليست؟ سيليست؟

ولم يجب هو.. لكن البيت كان يتداعي أمامنا، ولم يعد سوى جمرة متوهجة تأخذ بالأبصار، كومة هائلة تحترق حيث المرأة المسكينة التي لابد أنها صارت قطعة متوهجة من اللهب.ولم نكن قد سمعنا صيحة واحدة.

وكانت النار تتجه نحو المخزن المجاور، ففكرت فجأة في حصاني، وأسرع كافالييه لإنقاذه.وما كاد يفتح باب الاصطبل حتى مرق جسم سريع بين ساقيه، وأوقعه على الأرض.. إنه ماريوس الذي كان يعدو هاربًا..

نهض الرجل في لحظة وأراد أن يجري ليلحق بالصبي التعس. ولكنه أدرك أنه لن يلحق به فتملكته ثورة عارمة لا تقاوم، وانقاد لحركة من الحركات الطائشة، التي لا تقدر عواقبها وأمسك ببندقيتي، وكانت ما برحت على الأرض بالقرب منه، فرفعها إلى كتفه، وقبل أن أستطيع أن آتي حركة ما،

أطلقها وهو لا يعرف حتى إذا كانت معبأة أم لا.

كانت لا تزال بها إحدى الرصاصتين اللتين وضعتهما فيها. فأصابت الهارب في ظهره، فانكفأ على وجهه مضرجًا بالدم، وأخذ في الحال ينبش الأرض بيديه وركبتيه وكأنه يريد أن يواصل الجري على أربع كالأرانب البرية حين تصاب إصابة قاتلة وترى الصياد مقبلًا نحوها.

واندفعت، وكان الفتي قد أخذته حشرجة الموت، ولفظ النفس الأخير قبل أن تخمد نار المنزل، ودون أن ينبس بكلمة.

وبقى كافالييه بقميصه عاري الساقين، وظل واقفًا بالقرب منا، ساكنًا متبلدًا. وعندما وصل أهل القرية، أخذوا حارسي وقد صار كالمجنون.

وحضرت القضية شاهدًا، ورويت وقائعها بالتفصيل دون أن أغير شيئًا من الحقيقة، وبرئت ساحة كافالييه، لكنه اختفى في اليوم نفسه تاركًا البلدة.ولم أره بعد ذلك قط.

هذه أيها السادة قصتي عن الصيد.

في الحقول

الكوخان متجاوران، عند سفح التل، بالقرب من إحدى مدن الحمامات الصغيرة والفلاحان يكدان ويكدحان في الأرض المجدبة لكي تتاح لهما تنشئة صغارهما، ولكل أسرة منهما أربعة أطفال. وترى الأطفال جميعا في حركة دائمة من الصباح إلى المساء، أمام البابين المتجاورين. وكان الكبيران في السادسة من العمر، والصغيران في حوالي الشهر الخامس عشر. فقد تزوج الفلاحان وأنجبا أولادهما في وقت واحد تقريبًا.

وكانت الأمان لا تكاد كل منهما تميز خلفها بينهم، أما الأبوان فيخلطان بينهم.. وكانت الأسماء الثمانية تضطرب في رؤوسهم، ولا تكف عن الاختلاط فيما بينها حتى إذا ما وجب استدعاء واحد منهم، صاح الرجلان به ثلاثًا قبل أن يصلا إلى الولد المطلوب.

وكان آل توفاش يشغلون أول هذين السكنين في طريق القادم من محطة رولبور للمياه المعدنية، ولهم ثلاث بنات وولد، أما الكوخ الثاني فيقطنه آل فالان ولهم بنت وثلاثة أولاد.

وكانوا يعيشون عيشة قاسية، غذاؤهم الحساء والبطاطس، والهواء الطلق واعتادت كل من السيدتين أن تجمع أطفالها في السابعة صباحًا وعند الظهر وفي السادسة مساء، لكي تطعمهم، مثلها في ذلك مثل حراس الإوز حينما يجمعون طيورهم. وكان الأطفال يجلسون صفًا مرتبين حسب السن، حول المائدة الخشبية التي صقلتها خمسون عامًا من الاستعمال، وكان فم آخر

الأطفال في مستوى سطح المائدة. وكانت الأم تضع أمامهم الصحن المجوف الممتلئ بالخبز المبلل بالماء الذي أنضجت فيه البطاطس، ونصف كرنبة، وثلاث بصلات. فيأكل الأطفال حتى تمتلئ بطونهم، وكانت الأم تطعم بنفسها أصغر أطفالها. أما في يوم الأحد فيوضع في القدر قليل من اللحم مما يجعل ذلك اليوم عيدًا للجميع، وعند ذاك يقضي الأب وقتًا طويلًا على المائدة، وهو لا يفتأ يردد: آه لو كنا نأكل منها كل يوم!.

وفي عصر يوم من أيام أغسطس وقفت فجأة عربة خفيفة أمام الكوخين، وقالت امرأة شابة كانت تقود العربة بنفسها، للسيد الجالس بجوارها:

– أوه، انظر يا هنري هذا الكوم المكدس من الأطفال! ما أجملهم وهم يمرحون هكذا في التراب.

ولم يجب الرجل بشيء فقد ألف هذا اللون من الإعجاب الذي كان مصدر عذاب له وربما كان فيه ملامة أيضًا.

واستطردت المرأة الشابة تقول:

– يجب أن أقبلهم. أوه! كم أتمنى لو أن لي واحدًا منهم! هذا مثلا! أصغرهم!.

وقفزت من العربة، وجرت نحو الأطفال وأخذت واحدًا من الأصغرين كان ابن آل توفاش، ورفعته بين ذراعيها، وطبعت قبلة حانية على خديه القذرين، وعلى شعره الأصفر المجعد، المدهون بالوحل، وعلى يديه الصغيرتين اللتين كان يحركهما للتخلص من هذا العناق الذي ضايقه.

ثم ركبت عربتها ثانية وانصرفت مطلقة العنان لجيادها. لكنها عادت في الأسبوع التالي، وجلست بنفسها على الأرض، وتناولت الطفل بين ذراعيها وحشت فمه بالكعك، وأعطت حلوى للآخرين، ولعبت معهم كأنها طفلة صغيرة، بينما راح زوجها ينتظرها صابرًا في عربته الصغيرة.

وعادت بعد ذلك، وتعرفت على والديه، ثم أخذت تأتي كل يوم وجيوبها تفيض بالحلوى والفلوس.وكانت تلك السيدة تدعي مدام هنري دوبيير.

وذات صباح أتت ومعها زوجها، ودخلت المنزل دون أن تقف عند الأطفال الذين كانوا يعرفونها الآن تمام المعرفة.

وكان الرجل وامرأته يشفان خشبًا استعدادًا لطهي الحساء، فانتصبا واقفين وقد أخذتهما الدهشة. وقدما لهما مقعدين، وانتظرا ما سيقولان وعندئذ بدأت المرأة الشابة تتحدث في صوت متقطع مضطرب:

– أيها القوم الطيبون، أتيت لمقابلتكم لأنني أود.. أود أن أصحب معي ابنكم الصغير.

ولهث الفلاحان. وضاعت منهما كل فكرة، فلم يجيبا.

والتقطت أنفاسها واستمرت تقول:

– لم ننجب أطفالًا! نحن وحيدان، أنا وزوجي، نريد أن نحتفظ به.. أتوافقان؟

وبدت الفلاحة تفهم كل شيء. وسألت:

– أتريدين أن تأخذي منا شارلو؟ آه كلا.. بالتأكيد.

وعندئذ تدخل مسيو دوبيير:

– لقد أساءت زوجتي التعبير. نحن نريد أن نتبناه؛ لكنه سيعود ليراكم. فإذا صلح أمره وفلح، وكل الامارات تنبئ بذلك، فسنجعله وريثًا، وإذا أنفق وأنجبنا أطفالًا آخرين فسيقاسمهم الميراث.. لكن إذا لم يحقق هدف عنايتنا به، فسوف نعطيه حالما يبلغ سن الرشد، مبلغ عشرين ألف فرنك، ستوضع في الحال باسمه لدى موثق العقود. ولما كنا قد فكرنا فيكما أيضًا فسندفع لكما راتبًا شهريًا قدره مائة فرنك، يستمر دفعها حتى الوفاة.. هل فهمتما ذلك جيدًا؟

وانتصبت الفلاحة شديدة السخط:

– أتريدين منا أن نبيعكما شارلو؟ آه. ولكن لا! أيمكن أن يطلب أحد هذا.. من أم؟ آه! كلا، يا له من أمر فظيع!

وكان الأب وقورًا رزينًا لا يقول شيئًا، لكنه كان يؤمن على كلام زوجته، بحركة مستمرة من رأسه.

وتحيرت مدام دوبيير وأخذت تبكي، والتفتت نحو زوجها وتمتمت تقول في صوت يخالطه البكاء، صوت طفل تعود أن تجاب جميع رغباته:

– إنهما لا يريدان يا هنري! لا يريدان.

وعندئذ بذل محاولة أخيرة.

– ولكن فكرا أيها الصديقان في مستقبل ابنكما، في سعادته، في...

وقطعت الفلاحة حديثهما وقد أحنقها الأمر:

– لقد عرفنا كل شيء، وفهمنا كل شيء وفكرنا في كل شيء.. أغربا عنا ثم إنني لا أريد أن أراكما مرة ثانية في هذا المكان، وهل يباح أن يغتصب طفل على هذا النحو؟!

وأثناء خروج مدام دوبيير، لاحظت أن هناك طفلين صغيرين فسألت من خلال دموعها، في إصرار امرأة صاحبة إرادة، مدللة، لا تطيق الصبر قط:

– والصغير الآخر، أليس ابنكما!

وأجاب الأب توفاش:

– لا.. إنه ابن الجيران، ويمكنكما الذهاب إليهم إذا شئتما.

ورجع إلى بيته حيث كان يدوي فيه صوت زوجته المغيظة.

وفي الكوخ الآخر كان آل فالان جالسين حول المائدة يأكلون متمهلين شرائح خبز يدهنونها في حرص شديد بقليل من زبد وضع في صحفة بينهم. وأعادت مدام دوبيير عروضها، ولكن مع زيادة في التلميح، والتحرز، والمكر.

وكان الفلاحان يهزان رأسيهما علامة على الرفض، غير أنهما عندما علما أنهما سيحصلان على مائة فرنك شهريًا، تبادلا النظرات، وتشاورا بالعين، وقد بلغ بهما التأثر كل مبلغ.ولزما الصمت فترة طويلة، يتنازعهما العذاب والتردد. وسألت المرأة آخر الأمر:

– ما قولك في هذا أيها الرجل؟

فقال في صوت متزن:

– أقول أنه عرض لا يمكن احتقاره!

وحينئذ حدثتهما مدام دوبيير وهي ترتجف، عن مستقبل الطفل وعن سعادته، وعن كل ما سوف يعطيهما من مال فيما بعد.

فسأل الفلاح:

– وهل سيسجل الراتب الألف والمائتين فرنك، أمام موثق العقود؟

فأجاب السيد دوبيير:

– نعم من غير شك.. ومن الغد.

أما الفلاحة التي كانت تفكر في هذا الحديث فقد استطردت تقول:

– مائة فرنك في الشهر. إنها لا تكفي مطلقًا نظير حرماننا من ولدنا أن هذا الطفل سيشتغل بعد بضع سنوات. لابد لنا من مائة وعشرين فرنكًا.

وكانت مدام دوبيير تضرب الأرض بقدميها في صبر نافذ. فوافقت في الحال. ولما كانت تريد أن تحمل الطفل معها، فقد نفحتهما مائة فرنك كهبة، بينما كان زوجها يحرر الصك اللازم. واستدعى العمدة وأحد الجيران في الحال كشاهدين.

وخرجت المرأة الشابة تحمل الطفل الباكي، مشرقة الوجه، كما يحمل الإنسان تحفة يشتهيها اشتراها من أحد الحوانيت.

وكان آل توفاش يرقبان المشهد وهما واقفان على بابهما صامتين عابسين، ولعلهما كانا نادمين لرفضهما.

ولم يعد أحد يسمع شيئًا عن جان فالان الصغير. وكان أبواه يذهبان إلى

موثق العقود مرة كل شهر ليقبضا الفرنكات المائة والعشرين.

ونشب الخلاف بينهما وبين جاريهما، لأن الأم توفاش كانت تصمهما دائمًا بالعار وهي لا تفتأ تردد من باب إلى باب، يجب أن يكون المرء منحرف الطبع لكي يبيع ابنه، إن ذلك لأمر فظيع، قذر، فاسد.

وكانت تأخذ صغيرها شارلو بين ذراعيها في بعض الأحيان، وتصيح به متشامخة، كما لو كان يفهم ما تقول:

– لم أبعك أنا، لم أبعك يا صغيري، أنا لست غنية، ولكني لا أبيع أولادي.

وظل الحال على ذلك سنوات وسنوات، فثمة تلميحات غليظة كان يقذف بها أمام الباب كل يوم حتى تدخل البيت المجاور. وانتهى الأمر بمدام توفاش أن اعتقدت نفسها أرفع أهل الإقليم جميعا، لأنها لم تبع شارلو، وكان الذين يتحدثون عنها يقولون:

– حقا لقد كان أمرًا مغريًا، ولكن لا يهم، فقد تصرفت تصرف أم حقيقية.

وكانوا يضربون بها الأمثال، وكان ابنها شارلو قد أشرف على الثانية عشر، وقد نشأ وهذه الفكرة تتردد على سمعه دون انقطاع، فأصبح يرى نفسه أرفع من أترابه جميعا لأن أهله لم يبيعوه.

وكان آل فالان يعيشون في سعة، بفضل المعاش الشهري. مما أثار سخطًا لا يهدأ في نفس آل توفاش الذين ظلوا على بؤسهم.وذهب ابنهم الأكبر إلى الجندية، ومات الثاني، وبقى شارلو وحده يكد مع الأب العجوز ليطعم أمه وأختين أخريين تصغرانه.

وكان مشرفًا على الحادية والعشرين عندما وقفت ذات صباح عربة لامعة أمام الكوخين. ونزل منها سيد شاب يعلق على صدره سلسلة ساعة ذهبية، وقد تأبط ذراع سيدة عجوز ذات شعر أبيض. وقالت له السيدة العجوز:

– إنه هناك يا بني، في البيت الثاني.

ودخل كوخ آل فالان وكأنه يدخل بيته.

وكانت الأم العجوز تغسل ثوبها. وكان الأب المريض، يخالجه النعاس بالقرب من الموقد. ورفعا كلاهما رأسهما، وقال الشاب:

– صباح الخير يا أبي، صباح الخير يا أمي.

وانتفضا واقفين في ذعر، وتركت الفلاحة قطعة الصابون تسقط في الماء وقد نال منها التأثر، وتمتمت تقول:

– أأنت ابني؟ أأنت ابني؟

فأخذها بين ذراعيه وهو يكرر: "صباح الخير يا أمي!" بينما كان الشيخ يقول وهو يرتعش، يقول في صوته الهادئ الذي لم يزايله أبدًا: "ها قد عدت إلينا يا جان؟" كما لو كان قد رآه منذ شهر.

وعندما تم تعارفهم، رغب الأبوان أن يخرجا بابنهما يستعرضانه في البلدة، فأخذاه إلى بيت العمدة، وعند رئيس الشرطة، والقسيس ومعلم المدرسة. كان شاولو واقفا على عتبة كوخه، وجعل ينظر إليه وهو يمر به.

وفي المساء، أثناء تناول العشاء قال للشيخ:

– لقد كنتما من الغباء بلا شك بحيث تركتما آل فالان يبيعان ابنهما!

فأجابت أمه في عناد:

– لم نكن نريد أن نبيع ابننا.

ولم يقل الأب شيئًا.

واستطرد الابن يقول:

– أليس من المحزن أن يضحي بي على هذا النحو!

حينئذ تكلم الأب توفاش في صوت غاضب:

– هل تلومنا لأننا احتفظنا بك؟

فقال الشاب في عنف:

– نعم ألومكما على ذلك لأنكما أبلهان! إن أبوين مثلكما ليسببان تعاسة أولادهما، إنكما تستحقان مني أن أهجركما.

وكانت المرأة المسكينة جالسة تبكي وتئن وهي تبتلع ملاعق الحساء الذي كانت تريق نصفه على ملابسها، وقالت:

– اقتلوا أنفسكم إذن لتربوا أطفالكم!

وحينئذ قال الفتى في فظاظة:

– كنت أوثر ألا أولد على أن أكون المخلوق الذي هو أنا. ولقد فار الدم في عروقي لما رأيت ابن فالان منذ لحظات. وقلت في نفسي هذا ما كنت سأكونه الآن!

ونهض:

– استمعا إلي، أشعر بأنني أحسن صنعا بعدم البقاء في هذا المكان، لأنني سألومكما على ذلك صباح مساء. وسأجعل حياتكما بؤسًا. وهكذا تريان أنني لن أغفر لكما ذلك قط!

وصمت العجوزان، وقد بلغ بهما الذعر وسالت من عينيهما الدموع.

واستطرد يقول:

– لا.. إنها ستكون فكرة قاسية. أفضل أن أذهب وأبحث عن رزقي في مكان آخر.

وفتح الباب، ودخلت ضجة أصوات. كان آل فالان يحتفلون بابنهم العائد.

وعندئذ ضرب شارلو الأرض بقدميه مرتين، والتفت إلى والديه وصاح:

– أيها الغبيان!

وغاب في الليل.

الشيطان

وقف الفلاح في مواجهة الطبيب أمام فراش المحتضرة، وكانت العجوز هادئة مستسلمة، صاحية العقل، تنظر إلى الرجلين وتصغي إليهما يتحدثان، أنها مشرفة على الموت، ولكنها لم تتزعزع فقد حان أجلها، وبلغت الثانية والتسعين من عمرها.

وكانت شمس يوليو تنفذ من خلال النافذة والباب المفتوحين، مرسلة لهيبها على أرض الغرفة، تلك الأرض الطينية المعوجة التي دبت عليها أقدام أجيال أربعة من الفلاحين. وحمل الهواء المحرق أريج الحقول، وروائح الأعشاب والقمح وأوراق الشجر المحترقة في قيظ الظهيرة. وراح الجراد يئز أزيزًا شديدًا متصلًا، ويملأ الريف بطقطقة حارة واضحة كأنها الأجراس الخشبية التي تباع للأطفال في الأسواق.

ورفع الطبيب صوته قائلًا:

– يا أونوريه، لا تترك أمك وحدها، وهي على هذه الحالة، إنها ستسلم الروح بين لحظة وأخرى.

وأخذ الفلاح المحزون يردد:

– ولكن لابد أن أدخل قمحي، فقد بقى طويلًا في الحقل، والجو ملائم تمامًا! هيه! ما رأيك يا أماه؟

وأجابت العجوز المحتضرة التي ما برح بخل أهالي نورمانديا مستوليًا

عليها: "نعم!" قالتها بعينيها وجبهتها لتحث ابنها على أن يدخل قمحه، وأن يدعها تموت وحدها.

وغضب الطبيب وجعل يدق الأرض بقدمه وهو يقول:

– لست إلا وحشًا، أتفهم! ولن أسمح لك بأن تفعل هذا، أتفهم! وإذا كنت مضطرًا إلى أن تدخل قمحك اليوم بالذات، فاذهب واستدع السيدة "رابية" وكلفها بالسهر على أمك. أريد منك هذا أتفهم؟ وإذا لم تطعني، فسأدعك تموت ميتة الكلب، عندما يصيبك المرض بدورك، أتفهم؟

وكان الفلاح –وهو رجل نحيل طويل بطئ الحركات– نهبا للحيرة والخوف من الطبيب، وفريسة لحب المال، فتردد وأخذ يحصى ويتمتم:

– وكم تأخذ هذه المرأة "رابية" نظير سهرها؟

وصاح الطبيب:

– وهل أعرف أنا؟ هذا يتوقف على الفترة التي تقضيها، أتفق معها بحق الله، ولكني أريدها هنا خلال ساعة.

وأخيرًا حزم الرجل أمره وقال:

– سأذهب إليها.. سأذهب إليها.. لا تغضب يا سيدي الطبيب..

وانصرف الطبيب وهو يذكر الفلاح:

– أتعرف، أتعرف. احترس، أنا لا أمزح إذا غضبت!

ولما صار الفلاح وحده، التفت إلى أمه وقال لها في صوت مستسلم:

– سأحضر المرأة "رابية" ما دام هذا الرجل يريد ذلك، لا تقلقي حتى أعود.

وانصرف بدوره.

ورابية هذه كواءة عجوز، وتقوم كذلك بالسهر على الأموات والمحتضرين في البلدة وضواحيها، وقد اعتادت بمجرد أن تخيط الكفن حول الموتى أن تعود توا، فتأخذ مكواتها، وتبسط بها ثياب الأحياء. وكانت متغضنة الجلد كتفاحة قديمة من العام الماضي، وهي شرسة غيور بخيلة بخلًا مزريًا. وهي مقوسة الظهر، وكأن حركة المكواة الدائمة وهي تمر بها على الملابس قد قصمت عمودها الفقري. وأنك لتظنها مولعة ولعًا بشعًا بحالات الاحتضار، فهي لا تفتأ تقص قصصا عن أناس رأتهم يموتون، وتحكي عن جميع ألوان الوفيات التي شاهدتها. وهي تروي ذلك كله في تفصيلات دقيقة متشابهة دائمًا، مثلها مثل صياد يقص وقائع ما أصاب من صيد.

ولما دخل أونوريه بونطان منزلها ألفاها تعد الماء المزهر لياقات القرويات، فقال لها:

– مساء الخير، هل الأمور تسير وفق ما تشتهين أيتها الأم رابية؟

– لا بأس، لا بأس، وأحوالك أنت؟

– أما بخصوصي أنا فالأمور مواتية، لكن أمي ليست على ما يرام.

– أمك؟

– نعم، أمي!

– وماذا أصاب أمك؟

– إنها مشرفة على الموت!..

فسحبت المرأة العجوز يديها من الماء الذي كانت قطراته المزرفة الشفافة تنزلق على يديها حتى أطراف أصابعها لتعاود السقوط في الدلو.

وسألته في عطف مفاجئ:

– آه! هل صحتها سيئة إلى هذا الحد؟

– يقول الطبيب أنها ستموت بعد الظهر.

– إذن فحالتها سيئة جدًا؟

وتردد أونوريه، فقد كان عليه أن يعد بعض المقدمات لما سيطلبه فلما لم يجد شيئًا، حزم أمره وطرق الموضوع دفعة واحدة:

– كم ستأخذين لرعايتها حتى النهاية؟ تعرفين أننا لسنا أغنياء. لا أستطيع أن أدفع حتى أجر خادم ما. وهذا هو ما أدى بأمي المسكينة إلى هذه الحالة.. كثرة العمل. كانت تعمل كعشر نسوة رغم سنيها الاثنين والتسعين؛ لم يعد هناك أناس بهذه القوة.

فأجابت المرأة الرابية في وقار:

– هناك سعران: فرنكان عن النهار وثلاثة عن الليلة للأغنياء، أما الفقراء فيدفعون فرنكًا عن النهار وفرنكين عن الليلة.. وستدفع أنت فرنكًا وفرنكين.

وأخذ الفلاح يفكر. كان يعرف تمام المعرفة، أنها امرأة شديدة المراس، عنيدة مقاومة. وكان يمكن أن يستمر الحال معها ثمانية أيام على الرغم من رأي الطبيب.

فقال في حزم:

– كلا! إنني أفضل أن تحددي لي سعرًا، سعرًا مجملًا حتى النهاية. وليجرب كل منا حظه. الطبيب يقول أنها ستموت قريبًا. فإن حدث هذا فخير لك، والخسارة لي. وإن قاومت حتى غد أو بعد ذلك، فخير لي والخسارة لك.

وأخذت المرأة تنظر إلى الرجل في دهشة، فلم تكن قد اتفقت على رعاية شخص محتضر.. بالجملة. وترددت.. وأغرتها فكرة تجربة حظها.. ثم خطر لها أنه يريد خديعتها، فقالت:

– لا أستطيع أن أقول شيئًا، ما دمت لم أر أمك.

تعالى لمشاهدتها.

نشفت يديها، وتبعته في الحال.ولم يتبادلا كلما أثناء الطريق. وسارت في خطى سريعة، بينما كان هو يمد ساقيه الطويلتين كأنه يعبر جدولًا في كل خطوة.

وكانت البقرات الراقدة في الحقول، ترفع رؤوسها في ثقل وقد أعياها القيظ، وترسل خوارًا ضعيفًا نحو هذين الشخصين اللذين يمران بها كأنها تطلب قليلًا من العشب الأخضر.

وهمس أونوريه بونطان وهو يقترب من داره:

– آه! لو أنها قضت نحبها؟

وكانت نبرات صوته تفصح عن الرغبة المختلجة في نفسه. لكن العجوز لم تكن قد ماتت. إنها ما برحت راقدة على ظهرها، فوق فراشها الحقير، ويداها فوق الغطاء القطني، ذي اللون البنفسجي..يدان ناحلتان مغضنتان،

تشبهان بعض الحيوانات الغريبة كالسرطان. وكانتا مقبوضتين بفعل الروماتيزم، والأعمال المنهكة التي كانت تقوم بها والتي استغرقت قرنًا من الزمان تقريبًا.

واقتربت المرأة رابية من الفراش، وتأملت المحتضرة. وجست نبضها، وأنصتت إلى تنفسها، ولمست صدرها وسألتها بضعة أسئلة لتسمع صوتها، وبعد أن تأملتها مرة أخرى طويلًا، خرجت يتبعها أونوريه. كانت قد استقرت على رأي: لن تبلغ العجوز الليل.

وسأل هو: حسنا؟ فقالت:

– حسنا! أمامنا يومان، وربما ثلاثة أيام. ستعطينني ستة فرنكات بما في ذلك كل شيء.

فصاح بها:

– ستة فرنكات! ستة فرنكات! هل فقدت صوابك؟ أقول لك أن أمامها خمس ساعات أو ست، لا أكثر من ذلك.

وتجادلا طويلًا، وتمسك كل منهما برأيه. وكادت المرأة تنسحب، ولما كان الوقت يمضي، والقمح لن يدخل المنزل من تلقاء نفسه، فقد قبل، وقال لها:

– حسنا! اتفقنا.. ستة فرنكات بما في ذلك كل شيء، حتى الذهاب بالجثة إلى المقبرة.

– اتفقنا.. ستة فرنكات!

وانصرف في خطى واسعة نحو قمحه الملقى على الأرض تحت الشمس القوية التي تنضج المحاصيل.

ودخلت المرأة إلى البيت.وكانت قد أحضرت معها ما تشغل نفسها به. إذ أنها كانت تعمل بلا انقطاع، وهي تجلس بجانب المحتضرين والأموات، تعمل تارة لنفسها، وتارة للأسرة التي كانت تكلفها بهذا العمل المزدوج لقاء زيادة في الأجر.

– هل منحت الأسرار الأخيرة على الأقل، أيتها الأم بونطان؟

وأشارت الفلاحة أن "لا" برأسها، فنهضت المرأة رابية وكانت ورعة تقية، وقالت:

– يا الله! أيمكن هذا؟ إنني ذاهبة لأحضر القسيس.

وأسرعت نحو دار القسيس، في عجلة شديدة، حتى أن الأطفال الواقفين في الميدان ظنوا أن كارثة قد نزلت، إذ رأوها تركض على هذا النحو.

وجاء القسيس في الحال، وكان يرتدي السترة الكهنوتية البيضاء فوق مسوحه، وسار أمامه صبي الإنشاد، وهو يدق ناقوسًا صغيرًا، ليعلن مرور رجل الدين في ذلك الريف الهادئ الحار. وكان الرجال الذين يعملون بعيدًا في الأرض، ينزعون قبعاتهم العريضة الأطراف، ويبقون بلا حراك حتى يختفي عن ناظرهم بياض الثوب وراء إحدى الدور. وكانت النساء اللائي يجمعن حزم القمح، ينتصبن واقفات، ويرسمن علامة الصليب. وراحت بعض الدجاجات السود تهرب فزعة على جانب المصارف، وهي تهتز على قوائمها الطويلة، وتذهب إلى جحر تعرفه، لتختفي فيه فجأة. وفزع مهر مربوط وسط المروج، فزع لرؤية سترة القسيس، وأخذ يدور على طرف حبله وهو يركل برجليه. وكان صبي الإنشاد يسير مسرعًا وهو في ثوبه الأحمر. وخلفه القسيس يمشي وقد

مالت رأسه على أحد كتفيه وعليها قلنسوته المربعة وكان يتمتم بالصلوات. وتبعتهما المرأة رابية مقوسة الظهر، وكأنها انقسمت نصفين من وسطها.. كما لو كانت تريد أن تركع أثناء السير، وقد ضمت يديها وكأنها في الكنيسة.

ورآهم أونوريه يمرون من بعيد، فسأل:

– إلى أين يذهب قسيسنا؟

فأجاب خادمه بلباقة:

– إنه يحمل سر الله إلى أمك.

ولم يندهش الفلاح.

– إنه أمر ممكن على كل حال.

وعاد إلى عمله.

واعترفت الأم بونطان ونالت الغفران عن خطاياها وتناولت. وعاد القسيس من حيث آتى، تاركًا المرأتين في الكوخ الخانق. وعندئذ أخذت المرأة رابية تتأمل المحتضرة متسائلة إن كان الأمر سيدوم طويلًا.

وكان النهار يولى، وأتت نسائم الهواء الباردة، وجعلت تحرك صورة شبكت على الحائط بدبوسين. أما الستائر، البيض فيما مضى، والتي أصبحت مصفرة الآن ومغطاة بالبقع المتخلفة من الذباب، فقد كادت تطير من مكانها، كانت تريد الرحيل مثل روح العجوز.

وكانت المحتضرة ساكنة تفتح عينيها، يبدو عليها أنها تنتظر الموت

الوشيك، وقد تأخر وصوله. وكانت أنفاسها المضيقة تصفر في حنجرتها المختنقة. وعما قليل ستقف هذه الأنفاس. وينقص عدد النساء على هذه الأرض واحدة، لن يندم عليها أحد.

وعاد أونوريه مع الليل، وعندما اقترب من الفراش رأي أمه على قيد الحياة، فسأل: "كيف الحال؟" كما كان يفعل في الماضي عندما ينحرف مزاجها.

ثم صرف المرأة رابية وهو يوصيها:

– غدا في الساعة الخامسة، لا تنسي.

فأجابت:– غدا في الخامسة.

ووصلت بالفعل مع طلوع الشمس، وكان أونوريه يتناول حساءه الذي أعده بنفسه قبل الذهاب إلى الحقل. وسألت الحارسة:

– حسنا، هل ماتت أمك؟

فأجاب وهو يغمز بطرف عينه في خبث:

– لقد تحسنت صحتها.

وانصرف.

واستولى القلق على المرأة رابية، فاقتربت من المحتضرة التي كانت لا تزال على حالتها من التعب والوهن، وإن كان وجهها لا يفصح عن شيء، وكانت عيناها مفتوحتين، ويداها منقبضتين على غطائها.

وأدركت الحارسة أن هذه الحالة قد تستمر يومين أو أربعة أيام أو ثمانية

على هذا المنوال. وهصر الفزع قلب المرأة البخيلة، وأثارها في الوقت نفسه، سخط عنيف على ذلك الفلاح الخبيث الذي مكر بها، وعلى هذه المرأة التي لا تموت.ومع ذلك فقد بدأت عملها، وعيناها لا تفارقان وجه الأم بونطان المغضن بالتجاعيد.

وعاد أونوريه للغداء، وكان يبدو مسرورًا، بل ساخرًا، ثم انصرف ثانية ليدخل قمحه في هذه الظروف المواتية.

واغتاظت المرأة رابية، وخيل لها أن كل دقيقة تمر هي وقت مسروق ومال مسروق. وكانت تستشعر رغبة جنونية في أن تخنق هذه الحمارة العجوز، هذه العجوز العنيدة، العجوز المتصلبة الرأي، وأن تضغط قليلًا على رقبتها فتوقف تنفسها السريع القصير الذي كان يسبلها وقتها ومالها.

ثم فكرت فيما تتعرض له من أخطار لو نفذت فكرتها، وعرضت لها أفكار أخرى، فاقتربت من الفراش، وسألت:

– هل رأيت الشيطان؟

فقالت الأم بونطان:

– كلا!

وعندئذ بدأت الحارسة تتحدث وتروي لها حكايات لتبعث الهلع في نفسها الضعيفة المحتضرة.

وكانت تقول إن الشيطان يظهر للناس قبل أن تفيض أرواحهم لحظات، يظهر وفي يده مكنسة، وعلى رأسه قدر. ويرسل صيحات عالية، فإذا رآه

الإنسان، فتلك علامة دنو أجله، ولم يبق أمامه سوى لحظات قصار. وأخذت تعدد لها أسماء جميع من ظهر لهم الشيطان أمامها في هذه السنة، جوزيفان لوازيل، أولالي راتييه، وصوفي بادانيو، وسيرافين جروسبييه.

وتأثرت الأم بونطان آخر الأمر، واضطربت وجعلت تحرك يديها وتحاول أن تدير رأسها لتنظر إلى أقصى الغرفة.

وفجأة اختفت المرأة رابية عند قومي السرير، وأخذت ملاءة من خزانة الملابس، وتدثرت بها ولبست في رأسها قدرًا، كانت قوائمها الثلاث الصغيرة المعقوفة تنتصب كثلاثة قرون، وأمسكت مكنسة بيدها اليمنى، وأمسكت باليسرى دلوا من الزنك، قذفت به فجأة في الفضاء لكي يحدث دويًا عند سقوطه على الأرض.

فأحدث ضجة فظيعة وهو يصطدم بالأرض. ثم صعدت الحارسة على مقعد، ورفعت الستارة التي كانت تتدلى على طرف السرير، وأخذت تحدث كثيرًا من الحركات، وترسل صرخات حادة في جوف القدر، الذي يخفي وجهها، وتهدد بمكنستها الفلاحة العجوز المشرفة على الموت، وكأنما هي شيطان من شياطين القراقوز.

وذعرت المحتضرة ايما ذعر، وبدا الجنون في نظراتها، وبذلت مجهودًا جبارًا لتنهض وتفر، حتى أنها أخرجت كتفيها وصدرها من السرير، ثم سقطت ثانية وهي تتنهد تنهدًا عميقًا. وقضي الأمر.

وأعادت المرأة رابية كل شيء إلى مكانه في هدوء، المكنسة في ركن الخزانة، والملاءة بداخلها، والقدر على الموقد، والدلو على اللوح الخشبي،

والمقعد إلى جوار الحائط. ثم قامت بمراسم مهنتها، فأقفلت عيني الميتة الواسعتين، ووضعت على السرير صحفة سكبت فيها الماء المقدس، وغمست فيه الفرع الأخضر المثبت فوق الخزانة، ثم راحت تركع وتتلو في حرارة صلوات الموتى التي كانت تحفظها عن ظهر قلب لمقتضيات مهنتها.

عاد أونوريه إلى البيت مع الليل ووجدها تصلي. وحسب في الحال أنها كسبت منه فرنكًا، فهي لم تقض إلا ثلاثة أيام وليلة واحدة، مما يجعل لها خمسة فرنكات بدلًا من الستة التي كان عليه أن يدفعها لها.

الفهرس